مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، المجلد (٢)، العدد (١)، ص ص ٢٧-٦٨، بالعربية (محرم ١٤٣٠هـ/يناير ٢٠٠٩م)

منهج المقابلات في التفكير البلاغي

محمد بن عبدالرحمن الخراز

أستاذ مساعد البلاغة والنقد الأدبي، قسم اللغة العربية وآدابها

كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم

ص. ب ٥١٦٨، بريدة ٥١٤٢٢

mhmmd1@hotmail.com

(قدم للنشر ١٤٢٨/٩/١٥هـ؛ وقبل للنشر ١٤٢٨/١١/١٧هـ)

ملخص البحث.من الواضح أن فهم منهج العمل وآلية التنفيذ ركيزتان أساسيتان في فهم العمل ذاته، ومِن ثَم القدرة على الإسـهام في تطويره، وسد ثغراته ، وهذا البحث ينعم النظر في جانب من جوانب التفكير البلاغي، وهو المقابلات، ويهتم أولا ببيان مفهومها، مفرقا بينها وبين مقارِباتها من المصطلحات، أي (المقارنة) و(الموازنة)، ويستنتج أن المقابلات لا تلزم بالترجيح، بل تتعارض معه في الأصل، إذ البلاغة في جوهرها تربط الجمالَ بالمقام، فالحُكم فيها نسبي..

وتطرق البحث لأهمية المقابلات في نشأة علم البلاغة وتطويره، مستندا في ذلك وفيما يليه من المباحث والعناصر إلى أقوال أهل هذا العلم، بما يبرز أهميتها في التأسيس لواضعي القواعد ومستنبطيها من خلال مقابلة الأساليب ببدائلها، ومِن ثَم اكتشاف الفروق وتصنيفها بحسب المقامات الملائمة لكل أسلوب وصيغة.. وهكذا يتأسس كثير من القواعد، وما يتفرع عنها من التقسيمات المختلفة.

وتطرق البحث لتاريخ المقابلات فَأبانَ كم هو مغرق في الأصالة والتقدم في تاريخ الملاحظات البلاغية، والفكر البلاغي.

وانطلاقا من اعتبار المقابلة منهجا علميا فقد التمس البحثُ شروطه ومبادئه في نظر البلاغيين، فَبين أن من أهمها التسليم بفكرة (النظم)كما قررها عبد القاهر الجرجاني، وما تقتضيه من احترام الفروق بين الأساليب، ولو كان دقيقة.. وتقدير الفروق بين الألفاظ ولو قيل إنها مترادفة.

واهتم البحث بصفات البلاغي الجدير بالنجاح في إتقان المقابلات فَبين أن من أهمها تمتعه بالذوق الفني الراقي، وقدرته على تعليله بامتلاك أدوات التعليل والتفسير للذوق الأدبي، ومن أهمها سعةُ الاطلاع اللغوي، والثقافي،إلى جانب الاتسام بروح الصبر والمثابرة في التدقيق والتأمل عند الفروق بين المتقابلات.

وختم البحث بالنظر في مسارات المقابلات البلاغية، فانكشف له تعددها وتنوعِها، ومن أهمها مسار المقابلة داخل الصيغ والتراكيبِ والصورِ، والمقابلة بين الألفاظ المقاربةِ الدلالةِ أو ما قيل عنه إنه مترادف الدلالة، في التعبير عن ذات المعنى.. وكانَ البحث قد عِني بنفي الترادف، وبين أنه يتعارض بوضوح مع الحس البلاغي وروحه..

وبعد البحث في مسارات المقابلات الفاعلة في تراثنا البلاغي انتقل البحث للكلام عما يمكن القول بأنها مسارات مهملة عند البلاغيين المتقدمين، ومنها مسار المقابلة بين بلاغات الألفاظ، على النحو الذي فصله البحث.. ومنها مسار المقابلة بين اللغات، وبين البحث بأن أول هذين المسارين قد أخذ نصيبا حسنا من العناية به على أيدي المفسرين، وعامةِ المؤلفين في الدراسات القرآنية، وأن ثاني المسارين قد بدأ يأخذ نصيبا من العناية به على يد الدراسات اللغوية الحديثة، وأنه لذلك جدير بالتعمق فيه وإحيائه. والله الموفق.

المقدمة

بحمد الله وتسبيحه أبدأ، مثنيا بالصلاة على الهادي المنير، عليه أزكى سلام وتحية، ثم أما بعد:

يفتقر العديد من دراساتنا وتدريسنا لقوة المستَند، المتمثِّل في المنهج المحدد، والطريقة العلمية الواضحة، فلذلك جاءت دراساتٌ كثيرة في هيئة شذرات لا يجمعها رابط، ولا يؤلف بينها كيان منهجي.

و(علم البلاغة) يحتاج أكثر من غيره لتحديد منهجِ البحث فيه، لأنه علم ذوقيٌّ مفتوح لكافة الاحتمالات والتأويلات والنظرات.

فما لم يُضبط بحدود منهجية فلن يُفلح في تحقيق أهدافه، وحيازة مكانته اللائقة به بين العلوم اللغوية، وسيظل الدارس له في حيرة في أمره؛ عَلام يستند، وبأي قاعدة يتقدم، وفي أي مسار ينطلق!.

فمن هذا المنطلق رأيت أهمية البحث في منهج التكوين الأول للبلاغة العربية، وكيفية تسلسلها وتطوُّرها، بل نشأتها الأولى.

وصار ذلك اهتماما مدعوما بما صُبغت به علوم عصرنا هذا من المنهجية الواضحة القسمات المحددةِ المعالم.

منهج البحث

قد سعيت إلى التزام المنهج العلمي فيه حسب الاستطاعة، مستندا إلى مقومات أساسية في أمثاله؛ وهي: (الاستقراء)؛ وأعني به الاستقراء النسبي وليس المطلق، فهذا ما لا يدعيه أحد، وتحقق ذلك (الاستقراء بالتتبع لأشهر) الكتب البلاغية التي أسست لهذا العلم.. للوقوف على مستنداتها المنهجية التي صَنعت بها القاعدة وصاغتها وفرَّعتها وقسَّمتها.. فكان أن رأيتُ (للمقابلات) موقعا بارزا بين تلك المستندات.. (فجَمعتُ) النصوصَ الدالة على هذا الأثر، المحدِّدة لنطاقه ولآلِيَّاته، (ورَصدتهُا) .. ثم (درستُها وفحصتها) لغرضين؛ أولهما:(تصنيفها) بربط المتماثل منها وتمييز المتفرِّد من بينها.. وثانيهما:(استنباط) الإشارات الكامنة في بواطن تلك الأدلة المرصودة..متنقلا - في إطار عنوان البحث وحدوده- من استنباط إلى استنباط ، مودعا البحث نتائجه الواحدة تلو أختها.. إلى أن لخصت تلك النتائج وما ترتب عليها من التوصيات في ختامه.

على أن جزءا كبيرا مما مثَّلتُ به في شأن المقابلات من كلام المتقدمين ليس صريحا فيها، فهو محتاج للتأمل في مأخذه، ومورده، واستبطان خفايا دلالاته التي لا تظهر في أول نظرة، هكذا بدت لي قصة المقابلات، وبهذه الطريقة قرأتُها.

ولم أتعمد مطلقا أن أسبق النتائج بالافتراضات، بل كان العكس هو القاعدة التي قام هذا البحث عليها. مع إدراكي بأن الافتراض لا يتعارض مع الاستقراء في الأصل..أي عندما نتخذ من الافتراض خط انطلاق أوَّلي.. ثم نخضع البحث لمجريات الاستقراء فقد يثبت ذلك الافتراض وقد يتغير بالتصفية والاستثناءات ، أو حتى بالنقض والإبطال.

ولذا فقد وجدتني مرارا أعدل بكل اطمئنان عن أمر كنت قد افترضته على خلاف ما آل إليه أمره بعد الاستقراء والدراسة والتحليل.

وقد جاء هذا البحث في سبعة مباحث وخاتمة، والمباحث هي:

المبحث الأول: تحرير المصطلح.

المبحث الثاني: تاريخ المقابلات البلاغية.

المبحث الثالث: أثر المقابلات في علم البلاغة.

المبحث الرابع: آليات المقابلات وشروطها، وصفات مجريها.

المبحث الخامس: مبادئ المقابلة وأسسها.

المبحث السادس: خطوط المقابلات ومساراتها النشطة في التراث البلاغي العربي.

المبحث السابع: مسارات المقابلات غير النشطة في التراث البلاغي العربي.

ولا شك أنه ثمة دراسات سابقة ألَّمت بجوانب يسيرة من موضوعي هذا، ككتاب (تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، لعبد العزيز عرفة) لكنني لم أطلع على دراسة مفردة فيه.

والله المستعان.

المبحث الأول: تحرير المصطلح

١- مفهوم المقابلة والفرق بينها وبين المقارنة

لدينا مصطلحان يلتقيان مع مصطلح (المقابلة) في بعض دلالاته، وهما (المقارنة)، و(الموازنة)، ولكن التدقيق في دلالة كل منها لغويا، وفي استعماله اصطلاحيا، يجلي فروقا تَمنع ادعاء ترادفها في الدلالة على معنى واحد، وتُوصل للقول بأنّ لكل من هذه الثلاثة استعماله ومجاله.

فمقصودنا بالمقابلة في هذا البحث: (المواجهة المطلقة بين الأساليب أو الصيغ المتناسبة بوجه مّا، لبيان ما بينها من اختلاف أو اتفاق، لا لقصد المفاضلة أو الترجيح).

وهو المعنى نفسه الذي استعملها فيه عبد القاهر الجرجاني(المتوفى سنة ٤٧١هـ) في كتابيه؛ دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.. كما سيتضح إن شاء الله.

ومن الملاحظ أن عبد القاهر لم يستخدم بديلا يحل محل هذه الكلمة في أداء مضمونها المنهجي، بل أصر عليها في كتابيه، بما يدل على أنه يَعي – وهذا لا شك فيه أصلا- الفرقَ بينها وبين غيرها من المصطلحات المشابهة، وعلى الأخص كلمتا (الموازنة، والمقارنة).

وإذا ما انتقلنا لعالم بلاغي آخر، هو حازم القرطاجني، (المتوفى سنة٦٨٤هـ) فسنجده يستخدم كلمة (المقارنة)، وقد يضم إليها كلمة (المناظرة)، أو تتناوب عنده التسميتان ليدلا على معنى (المقابلة) الذي شاع في كلام عبد القاهر، واستخدام حازم يوحي بالتقارب بين مدلولي الكلمتين [١، ص:١٥، ١٤ و٤٤، ٤٥، ٤٦ وغيرها.]، وهذا لا يتفق مع المعنى المثبت لكلمة المقابلة في المعاجم العربية.

فالمقارنة تحمل بعدا دلاليا غير مناسب للمعنى الذي استعملت فيه كلمة (المقابلة) في الكتب البلاغية.

كما يدل قول الزمخشري في [٢، في مادة(ق ر ن)]: (هو قِرْنه في السن، وقِرنه في الحرب، القَرْن بالفتح: مِثلك في السن، وبالكسر: مثلك في الشجاعة، وهم أقرانه، وهو قَرينه في العلم والتجارة وغيرهما، وهم أقرانه وقرناؤه، وهي قرينتها، وهُنَّ قرائنها)...

إذا، فالمقارنة تهيئ للمفاضلة، (ولا تُلزم بها)، ولكنها إنما تلتزم بالقيد الآخر، وهو وجود الصفة الخاصة المشتركة بين الطرفين المقارنين، أو المقترنين.. كالمِثلية في العُمْر في قولهم (هو قِرنه في السن)، أو المِثلية في صفة الشجاعة في قولهم هو(قِرنه في الحرب).

وإنما قلت إنَّ المقارنة لا تلتزم باتخاذ الخطوة الأخرى، وهي خطوة المفاضلة والترجيح، لأن هذه الخطوة أو المرتبة والمرحلة خاصة (بالموازنة) كما سأثبته لغويا بعد الانتهاء من الكلام على الفرق بين المقارنة والمقابلة.

ولأنَّ المقارنة تحمل هذه الخاصية الدلالية –أي خاصية الاشتراك في وصف أو قيدٍ خاص- فقد استُعملت لعلم (الأدب المقارن)، فهذا العلم الأدبي النقدي: (يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصِلاتها الكثيرة المعقدة، في حاضرها أو في ماضيها، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثُّر أو تأثير.. والحدود الفاصلة بين تلك الآداب هي اللغات)[٣، ص: ١٥]، ونلحظ في هذا التعريف للأدب المقارن اشتراط خاصية التشابه والتماثل المثبَت بين اللغات في جوانبه العديدة، إلى جانب إمكان المفاضلة بين الآداب المتشابهة، أو بين اللغات المقارَنة في التأثر والتأثير مثلا.

هذا عن دلالة(المقارنة).

وأما (المقابلة) فلا تدل إلا على: (مواجهة شيء بآخر)؛ كما يشي به هذا السرد المتتالي لاستعمالات الكلمة في أساس البلاغة للزمخشري ففي [٢، مادة(ق ب ل)]: قال الزمخشري: (أصبت هذا من قِبلِك، أي مِن جهتك وتلقائك، ولقيته قِبَلاً وقَبَلاً، وقُبُلاً: مواجهة وعَيانا [...]ورأيت بذلك القَبَل شخصا، وهو ما استقبلك من نَشْزٍ أو جبل [...]ورأيت قبائل مِن الطير: أصنافا مِن غربان وحمام وغيرها) فدلالة (المقابلة) لا تشترط الاتفاق في وصفٍ خاصٍ على النحو المشروط في (المقارنة) بحسب ما فهمناه من كلام الزمخشري..

بمعنى أنَّ المقابلة تكتفي بالاتفاق أو التشابه أو التناظر الظاهري، مِثل تضاد الجهة بين المتقابلين، فهو تضادٌ باعتبار، وهو تماثلٌ في اعتبار آخر، بمعنى أنهما تماثلا في أن لكل منهما جهة تقابل جهة الآخر.. فهذا تماثل وتضادٌّ في الآن ذاته... لكنه لا يندرج في حيز الدلالة العميقة - أي الوصف الخاص- للطرفين، بخلاف التقارن كـ(تقارُن اللغات) مثلا، فإن التضاد والتماثل من صميم البحث المقارِن بين تلك اللغات في (علم اللغة المقارن، أو تاريخ الأدب المقارِن).

ولذا نقول (قابل زيد الأسد)، فلا يلزمنا فهم الاشتراك بينهما في صفة أصلية، كالشجاعة، وإن اشتركا في وصف ظاهري، وهو كون أحدهما في جهة تقابل/تضاد جهة الآخر.. بينما يُشترط الاشتراك في الصفة الأصلية لو قلنا (قارنت زيدا بالأسد)، فلا بد أن يكون بين المقارَنين اشتراكٌ في تلك الصفة؛ كصفة الشجاعة مثلا. ثم يترتب على وجود الاشتراك أو ادعائه (إمكانُ المفاضلة) - وليس الإلزام بها - بين الطرفين في ذات الصفة الخاصة.

وبهذا تكون (المقابلة) أوسع في دائرة دلالتها من دائرة (المقارنة)، فبينهما عموم وخصوص، فكلُّ مقارنة داخلةٌ في دائرة المقابلة، وليس العكس.

أي ليست كل مقابلة دالة على مقارنة، للسبب الذي أكدّتُ الكلام فيه، وهو: تَضَمُّن مفهوم المقارنة لأمرين، أحدهما إلزامي وهو: الاشتراك في الوصف الخاص، والآخر اختياري وهو: التفاضل أو المفاضلة بين الأمرين في ذلك الوصف الموصوف بأنه خاصٌّ.. وليست كذلك (المقابلات).

وعلى هذا يمكن أن تَرتقي وتَتطور أيُّ مقابلة يجريها البلاغي أو الناقد أو غيرهما لتدخل في نطاق المقارنات، تَطَوُّرا مقصودا إليه، بمعنى أنَّ الناقد أو البلاغي الدارس للنصوص أو التراكيب أو الأساليب، يمكنه أنْ يَرقى بمقابلاته بينها إلى مستوى المقارنات عند مرحلة معينة من سير المقابلة. أي: عندما يتضح له أنَّ بين الطرفين اشتراكا في وصف خاص..ثم (يُمكنه، أو يُتاح له) أن يُجري مفاضلة بين الطرفين في هذا الوصف الخاص الذي انكشف له بعد تأسيسِ بحثِه على (المقابلة) وانتقالِه بسبب هذا الكشف إلى مستوى (المقارنة)..

وعند عبد القاهر الجرجاني إلماحات لمثل هذا الترقِّي، في مثل قوله في عقب المناقشة لعدد من أمثلة التشبيه الحسية والعقلية: ..(وإذا ثبتت هذه الفروق والمقابلات بين التشبيه الصريح الواقع في العيان وما يُدرِكه الحِسّ، وبين التمثيل الذي هو تشبيهٌ من طريق العقل)...إلخ[٤، ص: ٢٣٦].

وقد نشأ علم بلاغي حديث، باسم (البلاغة المقارنة) يحمل ذات المفهوم الذي أَوْحتْ لنا به معاجمُ اللغة، والذي استُعمل بحسبه مصطلح (تاريخ الأدب المقارن)، ولهذا العلم البلاغي الحديث علماؤه من العرب، وتصدر باسمهم مجلة (ألِف)، وسأفرده ببحث مستقل بإذن الله تعالى.

٢- الفرق بين المقابلة والمقارنة وبين الموازنة

وإذا كان الاستعمال اللغوي - بحسب فهمنا الموضح آنفا- يَرفع المقارنة إلى رُتبةٍ هي أخصُّ من رتبةِ المقابلة، فكذلك نجد (الموازنة) في رتبة أخصُّ من (المقارنة)، ليس لأن الموازنة تزيد بخاصيةٍ دلاليةٍ معجميةٍ زائدةٍ على دلالتي المقارنة المذكورتين آنفا وهما: (الاشتراك في الوصف الخاص، وجواز المفاضلة بحسب هذا الوصف)، وإنما لأنها - أي الموازنة - تَجعل الوزن، وهو: إصدار الحكم بالتفاضل والتباين، أو المساواة، من صميم عمل الوازِن، أو الموازِن. بينما علمنا أنَّ هذا القيد غير وارد في أصل دلالة (المقابلة)، وأنه غير ملزَمٍ به في أصل دلالة (المقارنة)..

وعلى هذا الفرق تدل كلمة (وَزَنَ) في أصل وضعها دلالة أصلية، قال الزمخشري: (وزنتُ له الدراهم فاتَّزنها [...] ووزنت الشيء ورزنته وثقلتُه: إذا رزته بيدك لتعرف وزنه)[٢ ، مادة :(وزن)].

فالوزنُ يقود - في أصل دلالته - إلى الترجيح، بمعاييرَ متنوعة، منها الجودة والرداءة، والقلة والكثرة، القِدم والحداثة.

وعلى هذا المفهوم أُسست كتب الموازنة القديمة؛ ككتاب الآمدي: (الموازنة بين الطائيين)، والحديثةِ كذلك، ومنها كتاب(مَنهل الوُرّاد في علم الانتقاد)، لقسطاكي الحمصي، وكتاب"الموازنة بين الشعراء"لزكي مبارك[ينظر٥ ،ص: ٢٨٦-٢٨٧].

وعلى أساسٍ من التفريقات السالفة بين هذه المصطلحات الثلاثة المتقاربة يمكن القول بأنها تمثلت أَمامنا في ثلاث طبقات؛الأولى: أساسية وهي المقابلة، والثانية: وسطى وهي المقارنة، والثالثة قِمة وهي الموازنة.. وكل الطبقات قائمة على وجود أساس ثنائي أو متعدد في دراسة نصٍّ، أو جملةٍ وتركيبٍ، أو شعراءَ، أو اتجاهاتٍ.. ونحوها.

وبتتبُّع جُملة من كتب البلاغة المتقدمة ،كالبديع لابن المعتز، والصناعتين، والعمدة، والموشح، والمنزع البديع، ومنهاج البلغاء.. اتضح لي أنّ كُلا من الطبقات الثلاث قد أنتج قواعد بلاغية، أو أشار إليها..

فالجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥هـ)يوازن بين الرديء والجيد من الكلام، ويرى أنَّ الإمتاع قد يكون بالرديء من الكلام كما يكون بالجيد منه، أو أكثر[٦ ، ج ١ ،ص١٤٥].

وابن المعتز(المتوفى سنة٢٩٩هـ) يذكر الفن البديعي وما يُستحسن من شواهده، ويعقب عليها بذكر بعض المستكره منه[ينظر ٧ ، ص: ٩٠ ،١١٣ ، ١٤٢... وغيرها] ، فهذه موازنة، وهي مما هيأ لاستنباط قواعد وتفريعات بلاغية فيما بعد.

ولدى أبي هلال العسكري (المتوفى سنة ٣٩٥هـ)في الصناعتين صيغ عديدة هي أقرب لمفهوم الموازنة، أو المقارنة، منها إلى المقابلة، كأن يقول: (وكان ينبغي أن يقول، و: لا يقال وإنما يقال.و: الجيد أن يقال، و: ألا قال[ينظر: ٨، ص:٧٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٤٠ ...] وهي —مع ذلك- إشارات تحمل بذورا بلاغية مهمة.

وعبد القاهر الجرجاني استعان بالموازنة في مقام الترجيح بين المختلفات من أقسام باب التشبيه، فقال (هذا فن غير ما تقدم في الموازنة بين التشبيه والتمثيل)[٤ ،ص: ٢٠٤] وكان ذلك نافعا في التقعيد البلاغي كذلك.

ولعل عبد القاهر اختار تسميتها بالموازنة هنا بناءً على أنه قد أضمر نية تفضيل التمثيل على التشبيه، فهو بصدد أن يقول: إنَّ التمثيل خير من التشبيه لمن استطاعهما في مقام يحتمل الاختيار والاصطفاء، وهذا يلائم طبيعة الموازنة.

وأما حين يَود عبد القاهر أو غيره من السابقين كما سيأتي تفصيله= الظهورَ بمظهر المحايد لأول وهلة -وإن أَوْصله التأملُ إلى الاختيار والترجيح بالمقارنة والموازنة- أو حين يَود إرساء الفروق بين المتشابهات في الصياغة والأسلوب من النصوص الشعرية، فإنه يُعبر عن هذه التحليلات البلاغية بكلمة (المقابلة)، ولا يَعدل عنها، كما قال مرة: (و**المقابلات** التي تريك الفرق بين الجُملة والتفصيل كثيرة، ومن اللطيف في ذلك: أن تنظر في قوله....ثم **تُقابل** به قوله: .....فإنك ترى بينهما من **التفاوت في الفضل ما تراه**)[٤، ص: ١٦٣].

٣- واضعو البلاغة يقابلون وقد يوازنون

قد اخترت لهذه الدراسة ما جرى عليه كلام عبد القاهر، أي مصطلح (المقابلة) لصلته الوثيقة بطبيعة علم البلاغة ومقاصِده، لأننا نُدرك أن بناء علم البلاغة كله على قام على قاعدة (المناسبة لمقتضى الحال والمقام)[ينظر: ٩، ص: ١٥٣]، وهذا يعني أنه ليس بِوسع البلاغي أن يَحكم على أسلوب مَّا بأنه أفضل مطلقا من آخر، ولا كلمة أيضا، لأنَّ ما يَحسن في مقام قد يَقبح في آخر..

وبما أن الموازنة تستوجب الترجيح والمفاضلة، فإنها تعني الاستعداد المسبق للحكم المطلق على الأسلوب مَحلَّ الدراسة بأنه سيء أو حسن، أو متوسط الاعتبار بينهما. بينما قرر البلاغيون بعبارات متفننة أنَّ (النكات البلاغية بناء على الإرادة)، وأن (لكل مقام مقال).

إنَّ من الفروق المشتهرة بين البلاغة والنقد ما يدعم القول بأن البلاغة تقابل ولا توازن، وذلك أن البلاغة إيجابية الهدف والتوجه بمعنى أنها تسبق المبدع إلى إبداعه، فترسم له طريق الإبداع السليم، والجيد، وتضع له خيارات التعبير، بينما النقد سلبي المفعول، أو تال للإبداع، بمعنى أنه يقوم بالحكم على المنتَج في صورته النهائية، والحكمُ -لاشك- يَذم ويَمدح، أيْ أنه يُصدر أحكاما بالقبول والرفض، بناء على نظرةٍ معمقةٍ في العلاقة بين النص ودوافعه وأهدافه وغاياته.

وإذ تقرر هذا التفريق بين البلاغة والنقد فلا يمكن للبلاغة أن تَختص بالموازنة، وإنما تدور في فلك المقابلة، لأن الموازنة (إعطاءُ أحكامٍ مطلقةٍ بالجودة والرداءة، أو التوسط بينهما) بينما المقابلة تعطي (توصيفاتٍ محايدةٍ لأنواعِ الأساليب الممكنة للتعبير عن فكرة مَّا)، فهي -أعني البلاغة- لا تَعتقد بأن أُسلوبا مَا يمكن أن يُرد رأسا، ما لم يخضع لعوامل المقام والسياق الذي مُرِّر مِن خلاله، إذ قد يكسوه ذلك السياق وصف الحسن مع أنه مذمومٌ خارجَه، وكذا قد يَسلبه وصف الحُسن، مع أنه مُرشَّح له إذْ كان منفصلا عنه.

وإذا وجدنا بعض عبارات التفضيل المطلَقِ لأسلوب بلاغي على آخر، كإطباق علماء البلاغة على أنَّ الكناية أبلغُ من التصريح، والمجازَ أبلغُ من الحقيقة، والاستعارةَ أبلغُ من الكناية[ينظر ١٠، ص: ٣٤٠].. وأمثالها مما يتنافى مع ما ذكرناه من دوران هذا العلم حول محور المناسبة والمقتضى والمقام، فذلك محمول على اعتبارها أحكاماً

أغلبيةً، بناها بعض البلاغيين على استقراء كلام العرب وعاداتِ بلغائهم في التعبير، أو استدل على تفضيلها بِشغفِ الأساليب العالية بها، ودورانِها في فَلَكها، كتفضيل الرماني للإيجاز على الإطناب مطلقا لأنه أسلوبٌ قرآنيٌّ، فما اختاره القرآن فلا شك بتقديمه وتفضيله[ينظر: ١١، ص: ٨٠].

أو يقال: إنهم وازنوا بينها بهذه الطريقة بناء على النظر المجرد للأسلوب مفصولا عن السياق، فبهذا الاعتبار وَجَدوا أنَّ عدد مزايا الكناية بلا سياق مثلا يفوق عدد مزايا الحقيقة المنتزعة من سياقها أيضا.. وعلى هذا التفضيل جرى أبو هلال العسكري حين قدم الاستعارة باعتبارات مستقلة عن السياق، وهي: امتيازها بالتأكيد، وبالفعل في نفس السامع ما لا تفعله الحقيقية، وبالإيجاز...إلخ [٨، ص: ٢٦٩]

نذكر هذه التبريرات والمسوغات لِمَا وقع فيه البلاغيون مِن التفضيل المطلَق المبتورِ من السياق، أيَّ سياقٍ، ونحن نعلم بِأنَّ بلاغيين آخرين[ينظر: ١٢، ص: ٢٥٧- ٢٧٤] قد خالفوهم في هذا التوجُّه، مؤكدين أنَّ فنون البلاغة سواءٌ إذا اقتضاها المقام، وأنَّه ليس ثَمة ما يوصف بأنه حُسن عَرَضي وحُسن ذاتي.. بل كل الأساليب والصيغ مُعرَّضة للأحكام المتناقضة بين الحُسن وضِده، بحسب اقتضاء الكلام.. فالمرجع للمقابلة في حيز السياق.. وتنعكس صورة هذا التقرير من قول عبد القاهر: (ثم اعلم أنَّ هذا القسم الثاني، الذي يَدخل في الوجود، يتفاوت حالُه، فمنه ما يَتَّسع وجوده، ومنه ما يوجَد في النادر، ويتبين ذلك **بالمقابلة**، فأنتَّ إذا قابلت قوله: وكأن أجرام..... بقول ذي الرمة: كأنه فضة... علمت فضل الثاني على الأول، وتَقَدُّم الأول على الثاني في عِزَّتِه وقِلته)[٤، ص: ١٢٧].

٤- التدرج من المقابلة إلى المقارنة والموازنة

لدينا صورتان لِلتدرج

الأولى: أنه قد يقابِل البلاغيُّ بين كلامين لاكتشاف خصائصهما، واستنباط القواعد منهما، أو لتجليةِ الفروق بين ما يُظن أنها متماثلاتٌ من الأساليب أو الصيغ والعبارات، ثم بعد هذه المقابلة الحِيادية يَتحول ذلك البلاغي إلى الموازنة وإن لم تكن مقصودة له في أول الأمر، فيفضِّل أسلوبا على مقابِلِهِ (لا مطلقا، ولكن)بناء على تميز هذه الأسلوب عن ذاك في وُثوقِ علاقته بالمقام والحال، واكتمال تعبيره عنهما، وتصويره لهما..

الثانية: أنه - أي البلاغي- قد يقابِل بين كلامين مقابلةً محايدة، تلتزم الشفافية في بيان الخصائص، واستنباطِ الفروق، ثم يَتحول إلى الحكم المطلق - أي ليس المرتبط بالحال أو المقام ، خلافا للصورة السابقة- فيحكم بأنَّ أحدَ الكلامين أفضلُ (مطلقا) من الآخر، وهذا النهج كَثُر عند باحثي مسألة الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، حين يقابل أحدهم مقابلات محايدة بين خصائص الكلام العادي و خصائص الكلام الإلهي ،فتَهديه تلك المقابلات المستفيضة إلى أنَّ النص القرآني أبلغ وأتم وأكمل..كما صنع الرماني (ت ٣٨٦هـ)حين قابل بين مزايا

الإيجاز والإطناب بأنواعهما مقارنة مستفيضة، ثم تحول للموازنة التي فَضَّل بها الإيجاز، بقوله (وإذ قد عرفت الإيجاز ومراتبه، وتأملت ما جاء في القرآن منه، عرفتَ فضيلته على سائر الكلام، وهو علُّوه على غيره من سائر الكلام، وعلوُّه على غيره من أنواع البيان. والإيجاز: تهذيب الكلام بما يَحسن به البيان. والإيجازُ: تصفية الألفاظ من الكَدر وتخليصها من الدَّرن)..إلخ[١١، ص ٧٧- ٨٠].

والفرق بين صُورتي التحول هو أن الثانية منهما بدأ صاحبُها بلاغيا، ثم تحول ناقدا، وهذا السلوك والمنهج لا يُناسبان رحلة استنباط القواعد، لأن القواعد حيادية، لا تقيد بنصٍّ دون آخر، بل تصلح لكل ما تنطبق عليه، سواء القرآن العظيم، أم ما دونه، والبحتريّ أم مّن سِواه.

وأما صورة التحول الأولى ففيها بدأ البلاغي متجردا من نِيَّة الحكم بالذم المطلق أو الثناء المطلق، وهو أيضا سينتهي كما بدأ متجردا من تلك النية، يَضعُ المقاييس ويَسنّ الطريق، ويُوضِّح الخفيَّ، ويَستنبط من عُمق النص ما يمهد السبيل لسالكه.

المبحث الثاني: تاريخ المقابلات البلاغية

بدأت المقابلات كالموازنات والمقارنات، في وقت مبكر، قد لا يمكن استقصاء جذورها، إذ كثير من تراث الإنسانية والعربية طواه النسيان في جلبابه، لكنَّ مالا يمكن الاختلاف حوله هو أنَّ الحاجة إلى المقابلة والموازنة والمقارنة حاجة بشرية أساسية، استخدمها الإنسان لتمييز الأشياء، والتخيُّر فيما بينها، طِبقا لمصالحه واحتياجاته.

ونتصور أنَّ المقابلات نشأت في نطاق المحسوسات، وهو النطاق البدائي في الحضارة الأرضية، ثم تطور ليحلق في فضاء المعنويات..

وقد تَناهى لنا كثير من قصص المقابلة والمقارنة والموازنة بشكلها الفطري، من تراث العصر الجاهلي العربي، وما بَعده، ولا حاجة بنا لسرد تلك القصص، إذ تكفي الإشارة إليها أو إلى بعض منها، نحو ما تنازعه امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة من وصف الفرس في قصيدتيهما، وكانا قد حكَّما بينهما امرأةَ امرئ القيس، فقالت لزوجها: علقمةُ أشعرُ منك!، فقال وكيف ذلك؟ قالت: لأنه وصف الفرس بأنه أدرك الطريدة من غير أنْ يجهده أو يكده، وأنتَ مَريتَ فرسَك بالزجر وشِدة التحريك والضرب[١٣، ص: ٥٨]

وقصةُ احتكام حسانَ بن ثابت رضي الله عنه وجماعة من الشعراء إلى النابغة الذبياني في سوق عكاظ مشهورة.

واستمرت العناية بنهج المقابلات في كل عصر تالٍ، وتطورت آلاتُها، وتنوعت أشكالها، حتى إن بشار بن برد أبدى التياعا شديدا تجاه تفوق امرئ القيس، ثم كدَّ خاطره لمجاراته، أو التفوق عليه في نوع محدد من الوصف والتشبيه[تنظر القصة في مراجع عديدة، منها: ١٤، ص: ٤٩٤].

حتى لكأنَّ حِسَّ المنافسة قد تغلغل في روح الشعراء المتأخرين أكثر مما هو عند المتقدمين، لِما للمتقدمين من مزية السبق للمعاني، وخُلوِّ الميدان من المنافِس والقدوةِ المسيطرِ على ساحة الشعر.. فانبعثت في المتأخرين روحُ التحدي وحبُّ التفوق أو المجاراة..وهذه الروح وتلك المنافسات تستدعيان عملا فكريا وفنيا كبيرا لاستجماع أسباب التفوق والبروز، ولا يَتم ذلك إلا بأكبر آلاته وأهمِّها؛ وهو أن تُقابل أو تُقارن وتوازن بين ما تملكه أو تستطيعه أو تعرفه من آلة الكلام المبدِع، وبين ما استطاعوه أو ملكوه أو عرفوه منها..

وكان هذا القبيلُ من قَصص المقابلات مَرتعا خِصبا للبلاغيين، نقَّبوا فيه كل التنقيب، واستخلصوا من ثماره قواعد العِلم، وتقسيماته وتفريعاته، كما نعلم من اتخاذهم قصة بشار مع امرئ القيس، المشار إليها آنفا،مَعْلما في التفريق بين التشبيه المركب والتشبيه المتعدد[ينظر ١٠، ص: ٢٥٠].

وكما اتخذوا من قصة المبرِّد مع الفيلسوف الكندي مدخلا لبابٍ كامل من علم المعاني، هو (أضرب الخبر) فبعد أن ساق الخطيب القزويني الأضرُب ومثَّل لها، قال: (ويُؤيد ما ذكرناه جوابُ أبي العباس الكندي عن قوله: إني أجد في كلام العرب حشواً)..[١٠، ص: ٢٤]

ثم ازدادت المقابلات رسوخا وحضورا في المشهد العلمي والثقافي اللغوي والبلاغي بِتسرب تعريفاتِ البلاغة المترجمة من الأمم الأخرى، وبما اجتهد به العرب من تعريفاتها، فمُعظَم تلك المحاولات المتقدِّمة عربيةً أو أجنبيةً تحمل بذور التوازن والموازنة، والتقابل والمقابلة، وكأنهم شعَّبوا الجمال البلاغي على الجمال الحسي، فأخذوا منه أهم صفاته، وهي التناظر المتَّسِق، بين المتناقضات، والمتقابلات.. فجمال العينين القارتين، يؤكده جمال الأنف البارز، وجمال الأيمن من العضوين يكمله وجود مقابله على نسقه وصوغه.

وبهذه الروح الجمالية اتشح تعريفُهم للبلاغة، وانعكست على ما استخلصه علماؤها من تلك التعريفات المنوهة بشأن التناسب بين متقابلات اللفظ والمعنى، والإيجاز والإطناب، والفصل والوصل، والمتكلم والمخاطب، والشعر والخطب، والقُرب والبعد، والإظهار والستر، والخفاء والظهور، والعامي والغريب..

وبعد أن سرد أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) جملةً من تلك التعريفات، ذات الطابع التقابُلي، قال: (ومما يؤيد ما قلنا مِن أن البلاغة إنما هي إيضاح المعنى وتحسين اللفظ، قولُ بعض الحكماء: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام، إلى غير ذلك مما سنذكره ونفسره في هذا الباب)[٨، ص: ١٢، وينظر فيه أيضا ص ١٣٥. و: ٦، ص١/١٣٦ و١/١١٦ و١/١١٧، و١/١٤٤، و١٤، ص: ٤١٨].

وهكذا اتصلت سِلسلة المقابلات تاريخا وتطورا إلى أن أمسك عبدُ القاهر الجرجاني بزمامها؛ فارتقى بها إلى قمة المنهج البلاغي، معتبرا إياها ضرورةً لا تكميلا، فقال في الشافية: (إذا كان الشيء متعلِّقا بغيره، ومقيسا على

ما سواه، كان من خير ما يُستعان به على تقريبه من الأفهام...أن يوضع له مِثال يكشف عن وجهه، ويؤنس به، ويكون زماما عليه، يُمسك به..)[١٥، ص: ١١٧]

وقال في الأسرار:(ثم اعلم أن هذا القسم الثاني الذي يدخل في الوجود يَتفاوت حالُه، فمنه ما يتسع وجوده، ومنه ما يوجد في النادر، ويتبين ذلك **بالمقابلة**..)[٤، ص: ١٧٢]

وقال في الدلائل: (وإذ قد عرفت أن مدار أمر "النظم" على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن **الفروق والوجوه كثيرةٌ** ليس لها غايةٌ تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها= ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تَعرِضُ بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض)[١٦، ص: ٨٧].

المبحث الثالث: أثر المقابلات في علم البلاغة

ليست المقابلات المنبع الوحيد للقواعد البلاغية، وتفريعاتها، ولكنها كانت وما تزال الأهم من بينها. و بها تفوق عبد القاهر الجرجاني على مَن سواه من البلاغيين، إذ لم أرَ أحدا من المتقدمين بلغ شأوه فيها، واقتدر كاقتداره على توظيفها والتعبير عن نتائجها..

مع أنَّ الوعي بأهمية المقابلات كان شائعا لدى بقية البلاغيين، وقد جربوها فأهدتهم خير النتائج.

فأبو هلال العسكري يُقرِّر التفاضل بين الأسلوب القرآني وما عداه من بالغ الحكمة البشرية، فيتخذ المقابلة وسيلته ومنهجه، ويفصل في مسوغات التفضيل وأسبابه، بإشارات تحمل بذورا بلاغية متنوعة، لا يُشَكُّ في أن المتأخرين قد أفادوا منها في إرساء قواعد البلاغة، وصياغة مفرداتها العلمية، كقوله في إحدى هذه المقابلات: (ويتبين فضل هذا -[أي قوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾]- إذا قَرنته بما جاء عن العرب في معناه، وهو قولهم "القتل أنفى للقتل" فصار لفظ القرآن فوق هذا القول لزيادته عليه في الفائدة، وهو إبانة العدل لذكر "القصاص"، وإظهار الغرض المرغوب عنه فيه لذكر "الحياة"، واستدعاء الرّغبة والرّهبة لحُكم الله به ولإيجازه في العبارة. فإنّ الذي هو نظير قولهم: " القتلُ أنفى للقتل " إنما هو " القصاص حياة " وهذا أقلّ حروفاً من ذاك. ولبُعده من الكُلفة بالتكرير، وهو قولهم: "القتل أنفى للقتل " . ولَفْظ القرآن بَريءٌ من ذلك، ويحُسن التأليف، وشدة التلاؤم المدرك بالحسّ، لأنَّ الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة)...[٨، ص: ١٧٥]

وقد دبج أبو هلال العسكري عديدا من عناوين أبواب الصناعتين وفصوله بأصباغ المقابلات، وروحها، فالفصل الأول من الباب الثاني عنده بعنوان (في تمييز الكلام) وأودعه إشارات في الاهتمام بالمقابلة وتنويهات بأثرها، من جنس إشادته (بتخيُّر اللفظ، وإصابة المعنى)، و(استواء التقاسيم). وَوَضَع مقياسا موجزا للجودة في

هذه المكونات البلاغية، وهو (أن تجد المنثور مثل المنظوم في سهولة مطلعه، وجودة مقطعه)..إلخ [٨، ص: ٥٥، وانظر عنوانا ص٦٩آخر بعبارة (التنبيه على خطأ المعاني، وصوابها، ليتبع من يريد العمل برسمنا مواقع الصواب فيرتسمها، ويقف على مواقف الخطأ فيتجنبها).]

وبالتعبير الحديث تعد المقابلات (استراتيجية) أساسية في القراءة البلاغية والنقدية.

ولا غنى لصاحب علمٍ عن إجراء المقابلة بين حين وآخر، في سبيل الهداية للمعرفة والتنوير والتبصير، يقول الأستاذ أحمد الشايب في (أصول النقد الأدبي): (الموازنة بين الأشياء والآراء أصلٌ من أصول البحث العلمي ذي الآثار المهمة في العلوم والفنون، يَعمد إليها علماء النبات، مثلا، فيقرِنون كل نوع نباتي بآخر لمعرفة أوجه التشابه، والتقابل بينهما، توصلا إلى تَعرُّف كلِّ نوع وتحديدِ خواصِّه العنصرية وآثارها، وعن ذلك تتكون الفصائل النباتية، وتوضع قوانينُها العلمية، وتسير التجارب والتطبيقات، وكذلك يعمل علماء الطبيعة والكيمياء... والفلاسفة... والمؤرخون... والجغرافيون بالبيئات والأقاليم، والفنيون بالأدب والرسم والتصوير) [٥، ص ٢٨١]..

وأنبه هنا إلى ما أظنه تساهلا من الشايب في تحرير الفرق بين الموازنة والمقابلة والمقارنة، فما فصَّله من عمل النباتيين، والمؤرخين.. إلخ إنما هي مقابلات، لاموازنات، لأنها لو كانت موازنات لاقتضت منهم إقصاءً لعناصر، واستبعادا لأخرى، وتنويها بنوع، وتقريبا له.. لكنَّ عمل علماء هذه العلوم لا يضمرون النية لارتكاب أي من نتائج الموازنة، وإنما هم شَغِفون بالتمييز والتصنيف والتقسيم والتعريف الذي تهديهم إليه **المقابلة**.

وقد عبر عبد القاهر الجرجاني عن (استراتيجيته) في المقابلات بقوله في مطالع كتاب الأسرار:

(واعلمْ أن غَرضي في هذا الكلام الذي ابتدأتُه، والأساس الذي وضعته أن أتوصل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق، ومن أين تجتمع وتفترق، وأُفصلَّ أجناسها وأنواعها، وأَتتبع خاصها ومُشاعها، وأُبين أحوالها في كرم منصبها من العقل وتمكنها في نصابه، وقرب رَحِمِها منه، أو بُعدها -حين تنسب- عنه، وكونها كالحليف الجاري مجرى النسب، أو الزنيم الملصق بالقوم لا يقبلونه، ولا يمتعضون له، ولا يذبون دونه)[٤، ص: ٢٦].

وكان في طبع عبد القاهر الجرجاني حدة الذكاء ولْمح الإشارة، وحسن العبارة عما يجول في نفسه أو يلتفت إليه عقله، أو يقتنصه ذوقه، إلى جانب المعرفة التي اكتسبها حول خصائص الألفاظ، وتراكيب العبارات، فاجتمع كل ذلك ليرفد شغفه بالمقابلة والموازنة والمقارنة، فاكتسى كتاباه في البلاغة بروح الوزن والقياس، والتقابل والتناظر، حتى لكأنك تشهد أزاهير تُنضد، و أفانين تُصطفى.. وهذا في نظري ما بوأ عبد القاهر قمة جبل البلاغة.

ولإيمانه بأهمية المقابلة دعا إليها، ودرب عليها، وطبقها خطوة خطوة، لِيأتمَّ به الطالب ويحذو حذوه فيها، فقال مثلا: (وإن أردت أن ترى ذلك عياناً فاعمد إلى أي كلام شئت، وأزل أجزاءه عن مواضعها، وضَعْها وضعاً يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها فقل)إلخ [١٦، ص: ٤١٠]

وفي تدريب آخر قال: (وإن شَكَكتَ فاعمُد إلى الجارين والظرف فأزل كُلا منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل: "سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره". ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة؟ وكيف تعدم أريحيتك التي كانت؟ وكيف تذهب النشوة التي كنتَ تجدها؟)[١٦، ص: ٩٩].

وقال بعد الكلام على مسألةِ جعل الفرع أصلا في تشبيه المحسوس بالمحسوس: (وإذ قد عرفتَ الطريقة في جعل الفرع أصلا في "التمثيل" فارجع وقايِل)..[٤، ص: ٢٣٤]

وإنما أكثرت من حكاية أقوال عبد القاهر لكونه عَلم المقابلات المشتهر، وفارسها المقتدر، ولأنه عول كثيرا على المقابلات في توطيد قواعد البلاغة، بل في اكتشافها، ولَفْتِ الانتباه إليها.

وهو قد حذر في مقدمة (أسرار البلاغة) من مغبة إهمال دقائق الفروق المستكنَّة فيما بين الأساليب، والكلمات، والتراكيب، ونَعى على أصحاب النظرة العاجلة، والوقفة العابرة، خُسرانهم حينا بعد حين جواهرَ الأعماق، ودرر العقول، بسبب إهمالهم طريق التفريق بين المتفقات في الظاهر المختلفات في السر والباطن.

بل دعا إلى تقرير المتفَق عليه من خصائص الأساليب، قبل النظر في المختلَف حوله منها، لأنَّ في الخطوة الأولى عونا على الثانية، فقال: (...الفصول التي قدَّمتها وإن كانت قضايًا لا يكاد يخالِف فيها مَنْ به طِرْقٌ، فإنه قد يُذكر الأمر المتّفَقّ عليه، ليُبنَى عليه المختلَفُ فيه. هذا وَرُبّ وِفاقِ من مُوافِقٍ قد بقيتْ عليه زيادات أُغفلَ النظرَ فيها، وضروبٌ من التلخيص والتهذيب لم يُبحث عن أوائلها وثوانيها، وطريقةٌ في العبارة عن المغزى في تلك الموافقة لم يُمهّدها، ودقيقةٌ في الكشف عن الحُجة على مخالِف لو عرض من المتكلفين لم يجدها، حتى تراه يطلق في عُرْض كلامه ما يبرز به وِفاقاً في مَعْرِض خلاف، ويعطيك إنكاراً وقد همَ باعتراف، وربّ صديق والاك قلبهُ، وعاداك فِعلهُ، فتركك مكدوداً لا تشتفي من دائك بعلاج، وتبقى منه في سوء مزاج)[٤، ص: ٢٥]

وكثيرا ما ضمن حازم القرطاجني (المتوفى سنة ٦٨٤هـ)كتابَه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) تنويرات وإضاءات تستبطن تلميحا أو تستظهر تصريحا بأهمية هذه المقابلات، أو ما قد يسميها المناظرات بين المعاني ، وقد يشفع التنويه بالتعليم والتوجيه، بما قد يحتاجه المقايِل بين النصوص المستكشف لأسرار البلاغة ، ووجوه الحسن فيها، كمثل المعْلم الذي عقده للدلالة على (طرق العلم بالمناسبة بين بعض المعاني وبعض، والمقارنات بين ما تناظر منها)[١، ص: ٤٤].

المبحث الرابع: آليات المقابلات وشروطها، وصفات مجريها

في أسرار البلاغة نص يدل على اعتبار المقابلات منهجا علميا يجب إتقانه، ونَصٌّ على أن لمن أتقنها وحققها حقّ الوصف له بالانعتاق من رِبقة التقليد، والبراءة من عيب التقصير، فقد قال عبد القاهر في إثْرِ تفصيله في المقابلة

بين أنواع من التشبيهات: ((وفي هذا التقرير ما تعلم به الطريقَ إلى التشبيه مِن أين تَفاوت في كونه غريبا؟ولم تَفاضل في مجيئه عجيبا، وبأيٍّ سببٍ وجدتَ عند شيء منه من الهزة ما لم تجده عند غيره؟=عِلما يخرجك عن نقيصة التقليد، ويرفعك عن طبقة المقتصر على الإشارة، دون البيان والإفصاح بالعبارة)[٤ ، ص: ١٧٤].

والشيء إن وصف بالعِلمية استحق تحرير حدوده، وتبيين آلاته، واستظهار شروطه..

وإن في الصدارة من آلات المقابلة استثارةُ الذوق القابل، والحس المرهف، والبصيرة النافذة، فأصل البلاغة –كما قال الرماني- (الطبع)[١١ ،ص: ٤١٩].

والذوق: اسم فضفاض، تتفق الألسن على التنويه بشأنه، والإحساس بأثره، وتختلف في تعريفه، ووصفه..

(فالذوق: هو القوة التي يُقدَّر بها الأدب.

والذوق: هو الاستعداد الفطري [و]المكتسب الذي نَقْدِرُ به على تقدير الجمال والاستمتاع به، ومحاكاتِه بقدر ما نستطيع في أعمالنا، وأقوالنا وأفكارنا.

وليس الذوق مَلَكة بسيطة كما قد يُتوهم، ولكنه مزيج من العاطفة والعقل والحس)[٥ ،ص: ١٢٠- ١٢١ بتصرف]

والبلاغيُّ يُعول كثيرا على السلامة في ذوقه وطبعه الأدبي، وحسه النقدي والبلاغي. فكما تُطلب السلامة في الذوق الحسي لتمييز نكهات المطعومات، والالتذاذ بألوان الطيبات، والنفرة من الرديء والفاسد، فكذلك الذوق المعنوي.

وبهذا القياس تحدث أبو هلال العسكري، فقال: (إذا كان الكلام قد جمع العذوبة، والجزالة[...] وَوَرَدَ على الفهم الثاقب قَبِله، ولم يَرُدَّهُ، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجه) فإذن ليس كل فهمٍ بل الثاقب من الفهوم، وليس كل سمع بل المصيب المصغي. ثم قال (ولا يَقبل الكلام المضطرب إلا الفهمُ المضطرب، والرؤيةُ الفاسدة)[٨ ، ص: ٥٧].

والحاجة ماسة إلى سلامة الذوق في الأمور المعنوية أكثر منها في الحسية، وذلك لدقة مسالك الأولى من الذائقتين، ولِقلة التنبُّه لما يتسلل إليها من الفساد والاستحالة، وأيضا لما يمتاز به العمل الأدبي من (كثافة شديدة، لا تسمح للمتلقي بهذا الاختراق السريع، وإنما تتطلب منه أن يتوقف إزاءها، لينشغل بعناصرها البسيطة أو المركبة، المجاوزة أو غير المجاوزة، التي ترتبط في مرجعيتها الدلالية بعِدة احتمالات عَلِقت بها من طول الاستعمال أحيانا، ومن طبيعة السياق أحيانا أخرى، وهي خِصِّيصة شعرية في الصياغة الأدبية)[١٧ ،ص :٢٠٤].

ومن علامات سلامة الذوق وصفاء الطبع، ورهافة الحس لدى البلاغي عند إجرائه للمقارنات: قوةُ التصور، وتَمثُّل المعاني، بدقائقها وجلائلها، ليتسنى له التقاط وجوه الاختلاف والاتفاق، واستخراج القواعد

والتفريعات من بينها.. نَبَّه لهذا عبد القاهر في الأسرار، متسائلا: (...أفلستَ تحتاج في الوقوف على الغرض من قوله "كالبدر أفرط في العلو" إلى أن تعرف البيت الأول فتتصورَ حقيقية المراد منه، ووجهَ المجاز في كونه دانيا شاسِعا، وتَرقُم ذلك في قلبك، ثم تعود إلى ما يَعرض البيتُ الثاني عليك من حال البدر، ثم **تقابل إحدى الصورتين بالأخرى**، وتَرُدُّ البصر من هذه إلى تلك، وتنظر)إلخ[٤، ص: ١٤٤].

ومن علامات الذوق السليم في المقابلات اتسامه بروح التحدي والمثابرة والصبر والإصرار، وهي مما نوه به عبد القاهر الجرجاني أيضا، فقال: (ويتفاوت الحال في الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حد الجملة وحد التفصيل وكلما كان أوْغلَ في التفصيل،كانت الحاجة إلى التوقف والتذكُّر أكثر، والفقر إلى التأمل والتمهل أشدّ)[٤، ص: ١٦١].

وإن كانت الحاجة للتأمل تتدرج بحسب مراتب التفصيل ودقائقه، فإن عامة المعاني مفتقرة لهذه الروح، وقد استدل عبد القاهر لوجود هذه الحاجة بدليل منطقي جدا، وهو: كما أن الأديب كان قد بذل درجة من الفكر وتدرع بنصيب من الصبر، فإنَّ على الناظر في كلامه أن يهتم أيضا بمقدار اهتمام القائل، فيجود للكلام بما يحتاجه من قوة الفكر وطول الصبر، قال:(المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاثٍ منك في طَلبه، واجتهادٍ في نَيله، هذا وإن توقفتَ في حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر في تحصيله، فهل تشك في أن الشاعر الذي أداه إليك ونشر بزه لديك قد تحمل فيه المشقة الشديدة، وقطع إليه الشُّقة البعيدة...)[٤، ص: ١٤٥]

هذا الكلام يشير إلى اشتراك البلاغي مع المبدع في مهمة الانتقاء والاختيار بعد جمع النظائر،والمقابلة بينها، واكتشاف دقائقها، ثم المقابلة فيما بين المكتشفات، وتمييزها، وتصنيفها..إلخ

أوليس بشار بن برد –مثلا- قد كدَّ خاطره، وأعمل معرفته، واستنطق مواهبه، في شأن إجراء المقارنة بينه وبين امرئ القيس لا بتداع صورة متفوقة من صور التشبيه تفوقَ صورة أشعر شعراء الجاهلية، لقد بدأ بشار حينها بلاغيا مقابلا مقارنا، ثم انكفأ لأصل سجيته، مبدعا، وهكذا سيعود النص إلى الناقد ليعيد اكتشافه باذلا فيه مثل ما بذله القائل الأول.

وفي حادثة أخرى امتطى بشار –أيضا- صهوة جواد المقابلات، فقابل الخصائص التعبيرية المتاحة، وانتقى منها ما يناسب الغرض الذي أنشأ قصيدته لأجله، وهو مقابلة الغريب بالغريب،والوحشي من الألفاظ والتراكيب بمثله، فقد وجد واحدا من معاصريه، يُدْعَى بابن قتيبة، كان يَتباصَر بالغريب، فألجأ ذلك بشارا إلى نظم شعر يناسبه، وأراد أن يورد عليه ما لا يعرفه، أو ما لم يعهده، من غريب اللفظ والصياغة، وقد زكَّاه في هذا المقصد وفيما حققه من هدفه كُلٌّ من علمي عصره في اللغة والغريب: أبو عمرو بن العلاء، وخلف الأحمر.. وقد استنبط البلاغيون من المقابلة المضمرة في هذه القصة مسائل بلاغية عديدة، في باب الفصل والوصل، وفي باب أضرب

الخبر. بل جعلها الخطيب القزويني –أعني القصة- مضرِب مثلٍ في رهافة الذوق فقال: (وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة، فيها دقة وغموض)[١٠، ص: ٢٤].

ومع أن الذوق البلاغي -في أصله- فطرة ومَلَكة لكنه قابل للتنمية والتطوير والتحديث، بالمعرفة، كالذوق الحسي، ولذا قَرن عبدُ القاهر الجرجاني الذوقَ بالمعرفة واشترطهما معاً لِكل مَن أراد التكلم في البلاغة، أو الاستمتاع بما قيل فيها، فقال:

(واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع، ولا يجد لديه قبولا، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة)[١٦، ص: ٢٩١]

وتتحقق المعرفة بوسائل تكلم عنها البلاغيون وهم بصدد المقابلات التي كانوا يجرونها، أو ينوهون بشأنها..

فمما تُنمَّى به المعرفة الذوقية سعةُ الاطلاع على الأساليب، ومعاني الألفاظ، وبدائل الكلمات، وما ينفرد به لفظ عن لفظ في الدلالة والإشارة.

وكذا بِسَعة الاطلاع على الأغراض وخصائصها، وألوان التصوير الأدبي وطرقه ومزاياه ..ومذاهب ذلك كله، ومناهجه، ومثال ذلك أن أبا هلال العسكري قال في بلاغة قول الله تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾ (سورة النور، من الآية٣٩).. ولو قال "يحسبه الرائي ماء" لم يقع موقع قوله "الظمآن" لأنَّ الظمآن أشد فاقة إليه، وأعظم حرصا عليه)[٨، ص: ٢٤٠].

كما وَطَّدَ حازم القرطاجني مفهوم المعرفة الواسعة للبلاغي المتصدي لتمييز الأساليب، والمقابلة بينها، ووضْع القواعد المعبِّرة عنها، فعَقد بابا في (المباني) وصدَّره بمعْلم دالٍ على طُرق العلم بما سماها (قواعد الصناعة النظمية)، التي عليها تقوم مباني النظم، وقال (النظم صناعة آلتها الطبع. والطبع هو: استكمالٌ للنفس في فهم أسرار الكلام، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التي من شأن الكلام الشعري أن يَنحى نحوها)[١، ص: ١٩٨].

وقصة ابن هرمة في نكيره على الرجل الذي أخطأ في رواية بيت من شعره، حين أبدل لفظا مكان آخر، تدل على أمرين، أولهما: حُسن ذائقة الشاعر ودقته في التمييز، سواء كان أدرك الفرق بطريق الفطرة، أو بطريق التعلم. وثانيهما: دعوته الرجلَ المخطئ إلى تَعلم الفرق بين اللفظين –وسواهما- في النطق والمعنى، وهي -تبعا لذلك- دعوة **للفقه** في أسس المقابلة والتمييز، ففي القصة أن رجلا أنشد ابن هرمة بيته:

بالله ربك إن دخلتَ فقل لها: هذا ابن هرمة قائما بالباب

فقال للرجل: ما كذا قلت، أكنتُ أتصدَّق (أطلب الصدقة)!، قال: فقاعدا؟ قال: أكنت أبول؟! قال: فما ذا؟ قال: واقفا. ثم قال له: ليتك علمت ما بين هذين اللفظين من قَدْرِ اللفظ والمعنى!)[٨، ص: ٦٨].

ولأهمية ما تَدل عليه هذه القصة من المعاني التي نوهنا بها، فقد توجها أبو هلال العسكري بقوله: (وتمييز الألفاظ شديد!).

ومن فوائد تنمية الذوق بالتوسع في معرفة الألفاظ وأساليب النظم والتصوير اتساعُ مجال الاحتمال والتأويل والتوجيه والتفسير لدى البلاغي، كما يشير قول الخطابي: (وأما مَن تَبحر في كلام العرب، وعَرف أساليبَه الواسعة، ووقفَ على مذاهبه القديمة، فإنه إذا ورد عليه منها ما يخالِف المعهود من لغة أهل زمانه لم يَسْعَ إلى النكير فيه والتلحين. أخبرنا أبو عمر عن أبي العباس قال: قال ابن الخطاب: أَنحى الناس من لم يُلحِّن أحدا)[١٣، ص: ٤٧]. وقول ابن الخطاب هذا يُمثل متكأ كبيرا للبلاغي في استخراج القواعد البلاغية من أيِّ نَص يَرِدُ عليه، بعد معرفته بالمقام الذي قيل فيه، وتوثيق صلته به، أو بعد أن يفترض له مقاما ملائما إن فقد العلم بمقامه الأصلي، ثم هاهو يستنبط من نقطة التقاء المقام والمقال قاعدة أو تفريعا بلاغيا.

ومما يندرج من الكلام تحت وصف سعة الاطلاع وأهميته في تهيئة الذوق الأدبي لإجراء المقابلات التأكيدُ على أثر غزارة المحفوظ الإبداعي، لاسيما في مجال المقابلة؛ إن شعرا فشعر، وإن نثرا فنثر. وكلامُهم في باب السرقات الشعرية، وتفريقُهم بين أقسامها، إنما هو مبني على سعة الاطلاع في هذا المجال، وهو الاطلاع الذي مَهدَ الطريق لإجراء المقابلات والمقارنات، واستلال القواعد من خِضمِّها.

ومما يندرج أيضا تحت وصف سعة الاطلاع: سعةُ التثقف بالأحوال والمقامات والطبائع والعادات في التعبير عما يختلج في النفس من المعاني والمقاصد، فلا بد للبلاغي عند إجراء المقابلات من معرفةٍ شاملة؛ نفسيةٍ واجتماعيةٍ وتاريخية.. وقد لفت القدماء النظرَ إلى شيء من هذا حين قالوا في تفسير تعريف البلاغة: ..(ومقتضى الحال مختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة[...]وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي)[١٠، ص: ١١].

كما قد بُني على المعرفة بالأحوال والمقامات والطباع والعادات كثير من أبواب المعاني، كباب (أضرب الخبر)، مثلا[ينظر ١٠، ص: ٢٣].. وكمثل ما يدل عليه قول أبي هلال: (وقد رأينا الله تعالى إذا خاطب العَرب والأعراب أَخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا)[٨، ص: ١٩٣].

ولا بد له أيضا من البصيرة بأحوال القائل، وعصره، وظروف المحيط الإبداعي الذي أنتج فيه قصيدته، أو ألقى خطبته. وبإنارةٍ من هذه المعرفة توضع الأمور في نصابها، وتوزن الميزان العدل، فإن الأساليب تختلف من زمان لآخر، ويختلف -اختلافا نسبيا- المقبول منها والمرفوض والعالي وما هو أسفل منه، كما تتجدد بعض الدلالات أو تتعطل، وتغتني أو تفتقر، يعتريها ما يعتري البشر من الأحوال المتضادة، والتحول المطرد.. ينظر في ذلك كله لا لأجل أن يقبل أو يرفض ، ويقدم أو يؤخر، ولكن ليستنبط من كل حال قاعدة تناسب حالا مشابهة، ويستولد من

كل مقالٍ مقامٍ مَعْلَمةُ تلائم مقالا لمقام يأتي، فالبلاغة (مطابقة الكلام لمقتضى الحال)،(والنكتة بحسب المقام) ومقتضى الحال هو(الاعتبار المناسب)[ينظر لهذه العبارات ونحوها١٠ ، ص: ١١] فلا يعرض البلاغي عن أسلوب، أو يتجاهل طريقة، لأنه ما مِن واحد منهما إلا وهو منبع للقواعد البلاغية ومَرتَع ومصنع.

(وهكذا يكون الذوق الأدبي حلقة تاريخية تُصور خُلاصة الجهود الثقافية والتهذيبية لعصر من عصور التاريخ الأدبي. تجد أمثلة ذلك واضحة في استحالة الذوق الأدبي بين العصر الجاهلي وما وَليه من العصور إلى اليوم)[٥ ،ص: ١٢٩].

وبناء على قناعته باستحالة الأذواق عبر عصور الإبداع وظروفه وبيئاته..جَلَّى شيخُ البلاغيين عبدُ القاهر الجرجاني حاجةَ البلاغي - أحيانا- إلى الانعتاق من ربقة ظرفه الراهن، والارتحال بالذهن والوجدان والشعور نحو معايشة النص وهو في حال التكوين والتشكيل في عقل قائله، ثم في تسلله إلى عالم النور الإبداعي عبر تعبيرات الفَم، أو رَقْمِ القلم ، فقال: (واعلم أن مِن حقك أن لا تضع الموازنة بين التشبيهين -في حاجة أحدهما إلى زيادة من التأمل- على وقتنا هذا، ولكن تنظر إلى حالهما في قُوى العقل؛ ولم تسمع بواحد منهما، فتعلم أنْ لو أرادهما مُريدٌ أو اتفقا له جميعا ، ولم يكن قد سمع بواحد منهما **أيهما كان يكون أسهل عليه**، وأسرع إليه، وأعطى بيديه، وأيهما تجده أدلَّ على ذكاءٍ من تسمعه منه، وأرجى لِتخرُّج مَن يقوله[...]**وذلك أن تقابل** بين تشبيه النجوم بالمصابيح،والمصابيح بها)..إلخ[٤ ،ص: ١٨٨].

وأما إن تَعذر على البلاغي الاطلاعُ على الحال والمقام اللذين ولد النص في بيئتهما فحينذاك عليه التوسع في دراسة الاحتمالات الممكنة في ارتباط النص بمقامه الملائم المفترَض، وهذا ما يمكن تسميته (المقام الافتراضي)، وعليه عوَّل عصام الدين الإسفراييني شارح التلخيص (المتوفى سنة٩٥١هـ)، مسوغا للاستقصاء في تتبع الدلالات الممكنة المصحِّحة للتعقيد المعنوي في البيت المشهور:

سأطلب بُعد الدار عنكم لتقربوا وتَسكب عيناي الدموع لتجمدا

قال العصام: (فَلكلٍّ من المعاني وِجهة هو مُولِّيها.. وقصْدُ الشاعر موكول إليه ؛ غيرُه لا يُجلِّيها؛ إذْ لم يُعرف أنه بصدد الظرافة ، أو في مقام إظهار الحكمة والكرامة ، أو كان في مقام السفر والارتحال ؛ حتى يُحكم بحقيقة الحال . فلا مجال إلا لاستيفاء الاحتمال)[١٨ ،ص: ٧٦].

وصَنع من هذا قاعدة لمن خفي عليه المقام، والتبس أمامه المقصود، وهي أن:(العبارة موكولةٌ إلى المخاطب؛ فيُقدِّر ما شاء)[١٨ ،ص: ٤٩].

وهكذا فعل أبو هلال العسكري قبله بقرونٍ، مع حديث (وما يدريك أنه شهيد، لعله كان يتكلم بما لا يعنيه، ويبخل بما لا ينفعه)[1] فإن مقتضى المقابلة لعبارة (لا يعنيه) أن يقول (لا يُغنيه)، ليكون الكلام سجعا-كما قال أبو هلال- وأضاف: (والحكيم بالكلام يتكلم على قدر المقامات، ولعل قوله (ينفعه) كان أليق بالمقام فعَدل إليه)[٨، ص: ٢٦٢]

كما قد تُؤسسُ المقابلات اعتمادا على النظر في(القائل)، من هو؟، وما منزلته في البلاغة؟

فالجاحظ مثلا، يَحجب عيب الإسهاب والإطالة والتكلف عما كان مصدره (أرباب الكلام، ورؤساء أهل البيان، والمطبوعون المعاوِدون، وأصحاب التحصيل والمحاسبة [...] فكيف يكون كلام هؤلاء يدعو إلى السلاطة و المراء)[٦، ج ١ ص ٢٠١] ، بخلاف غيرهم ممن لم تحط البلاغة رحالها في رحابه.

تعليل الذوق

ثم إنه لا بد بعد الإنصات لرأي الذوق الأدبي في المقابلة بين النصوص، من تثبيت ذلك الرأي بالأدلة الممكنة، ليكون ذوقا معللا؛ قيِّما.

فهذا حازم القرطاجني يقرر المقابلة وطريقها فيقول: (يجب على من أراد حسن التصرف في المعاني بعد معرفة ضروبها التي أَجملتُ ذِكرها، أن يعرف وجوه انتساب بعضها إلى بعض، فيقول: إنه قد يوجد لكل معنى من المعاني التي ذكرتُها معنى أو معان تناسبه وتقاربه، ويوجد لها أيضا معنى أو معان تضاده وتخالفه) = ثم يقَدّمَ إضاءةً على هذا التنوير تلمح إلى طريقة من طرق تعليل الذوق وتبريره، فقال:(فإذا أردت أن تقارن بين المعاني **وتجعل بعضها بإزاء بعض وتناظر بينها** فانظر مأخذا يمكنك معه أن تكوِّن المعنى الواحد وتُوقِعه في حَيِّزين، فيكون له في كليهما فائدة، **فتناظر** بين موقع المعنى في هذا الحيز وموقعه في الحيز الآخر...)[١، ص: ١٤].

وكما نوهت في تمهيد هذا البحث إلى أن من إشارات المتقدمين في شأن المقابلات وشروطها ومنهجها ما هو على درجة من الخفاء، تستوجب الكشف والتوضيح، وأن ذلك لا ينقص من مقدار أهميتها، ولا يسوِّغ للدارس إهمالَها، ذلك أن ما هو مقصود لنا من كلام حازم القرطاجني هو قوله في النص السابق (فانظر مأخذا).. فهي دعوة رقيقة لتسنيد رأي الذوق في النصوص المقابَلة بالتعليل والتحليل.

وأما الذوق بلا تعليل فكالدعوى بلا دليل.. وفي كتاب (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) قصة نقدية أفاض ابنُ رشيق القيرواني (المتوفى سنة ٤٥٦هـ)في تعليل أحكامها تعليلا اكتسى بطابع المقابلة والمقارنة[تنظر القصة بطولها في: ١٤، ص: ٤٤٤].

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أبو يعلى، وفيه عصام بن طليق وهو ضعيف.

كما استنار هو في موضع آخر بمقولة للرماني(المتوفى سنة٣٨٦هـ) فيها التنويه بشأن تعليل الذوق والاستدلال لنتائجه، وهي قوله: (أصل البلاغة الطبعُ، ولها مع ذلك آلات تعين عليها، وتوصل إلى القوة فيها، وتكون ميزانا فاصلا بينها وبين غيرها)..[١٤، ص: ٤١٩]

وعند العلماء البلاغيين المتقدمين نماذج من العناية في المقابلات بالتحليل والتعليل ، ووصفِ نهجهما وتنوير حالكات طرقهما، كما صنع أبو هلال العسكري بعدما استعرض جملةً من كلمات الرسول صلى الله عليه وسلم البارعات، البالغات أعلى الدرجات في البلاغات، وقال:(فمعاني هذا الكلام أكثر من ألفاظه، وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك **فحُلها، وابنها بناء آخر، فإنك تجدها تجيء في أضعاف هذه الألفاظ**)[٨، ص: ١٧٨].

وكلمة (حُلَّها) صريحة في التحليل، أو في نوع من أنواعه. وأما ما بعدها من كلام أبي هلال فمعلم عالٍ في التنويه بالمقابلة ونجاعتها.

فلا بد –إذاً- للمحلل من البَصر التام بالمستنَد والمرجع في المقابلة، و القدرة على الاستدلال لما يدعيه وينتهي إليه ، وقد أنحى عبد القاهر باللائمة على كل من قصر في إثبات رأيه بالدليل المقنع المفصَّل، والبرهان الشافي المبيَّن، حين لم ير –ذلك المقصِّر- واجبا عليه (إلا أن يُلوِّح ويشير، أو يضرب مثلا ينبئ عن حُسنٍ قد عَرَفه على الجُملة، وفضيلة قد أحسها، من غير أن يُتبع ذلك بيانا، ويقيم عليه برهانا، ويَذكر له علة، ويُورد فيه حجة)[١٦، ص: ٦٥].

وأخيرا فالبلاغي صاحب الذوق والحس والبصيرة في المقابلة بين النصوص أحوج ما يكون إلى **امتلاك القدرة على التعبير** عما يجيش في نفسه وينقدح في عقله وذهنه من هذه المقابلات ونتائجها.

وقد بين عبد القاهر الجرجاني كم هي القدرة على التعبير عن الآراء الذوقية صعبةُ المرتقى، بعيدةُ المجتنى، عسيرةُ المطلب، وأكد أنه قد شمر عن ساعد الجد في الوفاء بحقوقها، وأبان أنه لولا إخفاق العارفين بوجوه الإعجاز في التعبير عنه لما (وجدتَ الناس بين منكِرٍ له من أصله، ومتخيِّل له على غير وجهه، ومعتقِد أنه لا تَقوى عليه العبارة، ولا يُملك فيه إلا الإشارة، وأن طريق التعليم إليه مسدود، وبابَ التفهيم دونه مغلق، وأنَّ معانيك فيه معانٍ تأبى أن تبرُز من الضمير، وأنْ تدين للتبيين والتصور، وأنْ تُرى سافرةً لا نِقاب عليها، وباديةً لاحجاب دونها[...] وأنْ ليس للواصف لها إلا أن يلوِّح ويشير، أو يضرب مثلا ينبئ عن حُسْنٍ قد عرفه على الجملة، وفضيلةٍ قد أحسها من غير أن يُتبع ذلك بيانا، ويقيم عليه برهانا، ويذكر له علة، ويُورِد فيه حجة)[١٦، ص: ٦٤].

وقد تجد عند بعض البلاغيين كالسجلماسي، صاحب المنزع البديع - مثلا- استكثارا من الشواهد للقاعدة، وتنويعا لها.. وكذا عند عبد القاهر، لكن البون بين البلاغِيَّين شاسع واسع، فعبد القاهر يأتي بالشواهد ليستنطق

أعمق الفروق فيما بينها، ويحللها تحليلا يكشف عن شخصية مستقلة لكل شاهد وتَمَيُّزٍ له في صورته عما سواه من الأشباه والنظائر. وبهذه المقدرة التعبيرية كان كلام عبد القاهر وتعليقه وتحليله للشواهد معرضا حسنا، بل مصنعا ثريا للقواعد الصريحة المكشوفة والكامنة المستترة... وأما الثاني –أعني السجلماسي (كان حيا سنة ٧٠٤هـ)، مِثالا - فإنه يأتي بالشواهد -وقد يكثر منها- لا ليكشف عن مِثل ما كشفه عبد القاهر فيها أو في أمثالها، ولا ليتعامل معها بمثل منهجه في المقابلة والمناظرة، بل ليتخذ منها استدلالا سطحيا على أهمية الفن، أو ليثبِّت قاعدة ونوعا، كما يتجلى في قوله عقيب استكثاره من الشواهد للتخييل: (ولأن هذا الجنس هو عمود علم البيان وأساليبِ البديع؛ من قِبل أنه موضوع الصناعة الشعرية، وبخاصة نوع المجاز منه=أطنبنا في صوره الخاصة، ومُثُله الجزئية، من قِبل أن **المثال مُثَبِّت** للقاعدة الكلية والقانون، وفاعل بوجه ما لتصوره)[١٩، ص: ٢٦٠].

وينطبق هذا التفريق في كيفية التعاطي مع الشواهد على البلاغيين المعاصرين، فمعظمهم يكتفي بالنظرة الشاردة المتعجلة إلى الشاهد والمثال، وكأن كُل الكلام متشابه التكوين والخلفية والدلالة والهدف. بينما يعايش آخرون النص بمثل روح عبد القاهر الجرجاني، ومنهم الدكتور محمد أبو موسى- كما يتضح في كتبه، ومنها: التصوير البياني، وخصائص التراكيب، ودلالات التراكيب.

المبحث الخامس: مبادئ المقابلة وأسسها

هذه أسس ومقدمات لا يمكن أن يجري البلاغي أو غيره من المعنيين باللغة ودلالاتها في ميدان المقابلات إلا إنْ هو سَلم بها وعمل على وفق مقتضياتها.. وها أنا أذكرها مميِّزا إحداها عن أختها، تمييزا اقتضاه واجب الدرس والبحث، وإلا فإنها فيما وراء هذا المقصد قد أخذ بعضها بحجز بعضها:

أولا: على المقابِل أن يسلم بمبدأ التمايز بين الألفاظ في الدلالة والتصوير

أي الألفاظ المترادفة، وهي: الأسماء المتعددة لمسمى واحد[ينظر: ٢٠، ص: ٦٠]

وغير المترادفة، وهي ما يدل على معنى قريب –أو أقرب فيما يبدو للوهلة الأولى-من المعنى الذي يحمله اللفظ المستعمل، ويكون المتكلم قد عدل عن ذاك إلى ذا، وارتضى ما استعمله واستبعد ما سواه.

وكان الإمام أبو سليمان الخطابي (المتوفى سنة ٣٨٨هـ)يصف التسليم بهذه المقدمة بأنه (عمود البلاغة)، وهو أدق ما يمكن وصفها بها، فقد وُفق فيه توفيقا كبيرا، حيث قال:

عمود البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات [يعني صفات الحُسن] هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أُبد ل مكانَه غيرُه جاء منه: إما تَبدُّل المعنى، الذي يكون معه فساد الكلام. وإما ذهاب الرونق، الذي يكون معه سقوط البلاغة.

ذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، كالعِلم والمعرفة، والحمد والشكر)..[١٣، ص: ٢٩]

ومن الواضح أن الخطابي يتكلم في ظاهر الترادف اللغوي، وأنه ينكر ما قيل بأن لفظا وإن أشبه لفظا في معناه يمكن أن يحل محله دون أن يؤثر ذلك في الدلالة بنوع تأثير، فكأنه ينكر الترادف.

وقال أبو هلال العسكري: (**تخير الألفاظ**، وإ**بدال** بعضها من بعض يوجب التئام الكلام، وهو من أحسن نعوته، وأبيَنِ صفاته)..[٨، ص: ١٤١]

وإنكار الترادف مذهب جمعٍ من متقدمي اللغويين ومتأخريهم، وإنكاره أليق بمن فَقِه أسرار البيان، ودلالات التعبير.

وكنت افترضتُ من أول وهلة أن عبد القاهر الجرجاني لا يقول بالترادف، وإلا فلن تَصفو له المقابلات التي وهبتها له نظرية النظم، تلك التي تأسست على القول بأن لكل لفظ في سياقه من الدلالة ما ليس له على انفراده، وما ليس له أيضا في سياق آخر. وكان هذا في محله، ففي أسرار البلاغة عند الكلام على الاستعارة غير المفيدة، وموضعها من اللغة، ذكر عبد القاهر أن موضعها (حيث يكون اختصاصُ الاسم بما وُضع له من طريقٍ أُريد به التوسع في أوضاع اللغة، والتنوُّق في **مراعاة دقائق في الفروق** في المعاني المدلول عليها)..[٤، ص: ٣٠]

فهذا صريح بأن بين الألفاظ المتقاربة في المعنى دقائق من الفروق يجدر باللغوي والبلاغي مراعاتها..

مع أنَّ من المتقرر أن عبد القاهر لم يحفل أبدا باللفظ وهو خارج عن التركيب، بل وهبه قيمته وإمكانية الحكم عليه بعد دخوله في جملة تامة، ولذا فلا يُظن أن عبد القاهر كان معنيا عناية كبيرة بالترادف اللفظي نفيا أو إثباتا، لكن ما لا يشك في بلوغه الغاية في العناية به هو (ترادف التراكيب) إن صح التعبير، لكن سنعلم عند الكلام –عما قليل- على السرقات الشعرية أن لعبد القاهر فيها رأيا مستندا لمفهوم النظم عنده، وسيأتي.

ومحصل ذلك كله وخلاصته: أنْ لا ترادف في التراكيب أيضا.

والمفسرون كذلك، لاسيما أهل البيان منهم، لا يُتوقع من أحدهم أن يأخذ بمذهب الترادف، ويجعل لفظا يحل محل لفظ مطلقا، وإلا فلن يجد في اختيار القرآن لألفاظ بعينها وتركه استعمال ما يدل على معناه من سواها مزيةً ولا فضلاً.. ولاستوى عنده المأخوذ والمتروك! لا يقول بهذا من يعتقد بأنَّ القرآن معجز ببلاغته ونظمه.

(فكل لفظة من ألفاظ القرآن وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، ولذلك لا نجد فيه ترادفا، بل كل كلمة تحمل إليك معنى جديدا)[من كلام الدكتور محمد حفنى شرف في كتابه(*الإعجاز البياني بين النظرية والتطبيق*). نقله عنه الدكتور أحمد ياسوف في٢٠، ص: ٥٨].

ويقول الدكتور أحمد ياسوف: والحق أنَّ هذا الرأي في نفي الترادف في القرآن ينطبق على كل دارسي الإعجاز المحدَثين، إلا صبحي الصالح، الذي يقول بالترادف)[٢٠، ص: ٥٨].

هذا عن التقارب على جهة الترادف، وأما التقارب لا على جهة الترادف، فيتمثل عندما يمكن التعبير عن المعنى بلفظ آخر ليس مرادفا للمستعمل ولكن يجوز أن يحل محله، فهذا أيضا لا يتفق مع منهج المقابلات وما تؤديه من النتائج للبلاغي، إذا لا يمكن للفظ البديل أن يحمل كل المعنى ونفس الإيحاء اللذين حملهما اللفظ المعبر به.

وعلى هذا الأساس من التسليم بالتفريق ناقش أبو سليمان الخطابي بدائل التعبير الممكنة في بعض آيات القرآن، وأكد أن أيّاً من البدائل لا يقوى على مجاراة ما اختاره القرآن الكريم في الدلالة والتصوير، كقوله تعالى ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ (يوسف: من الآية١٧) ، فقد أورد عليه بعضهم أن (الأكل) لا يناسب السبع، بل يناسبه (الافتراس)، وكذا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ (يوسف: من الآية٦٥) قال الخطابي: قالوا: وما اليسير والعسير من الكيل والاكتيال، وما وجه اختصاصه بهذه وأنت لا تسمع فصيحا يقول: كِلت لزيد كيلا يسيرا، إلا أن يعني به أنه يسير العَدد والكمية).

وعلى هذه الشاكلة سار الخطابي في إيراد الاعتراضات، ثم كرَّ عليها كلها بالتفنيد والإبطال ، موضحا فرق المعنى والدلالة بين ما اصطفاه القرآن وبين ما ادعاه أولئك، كما في قوله: (فأما قوله تعالى ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ فإنَّ الافتراس معناه في فعل السبع: القتلُ فحسب، وأصل الفَرْسِ: دَقُّ العنق، والقومُ إنما ادَّعوا على الذئب أنه أكله أكلا، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلا ولا عظما، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باقٍ منه يَشهد بصحة ما ذكروه، فادّعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، و"الفرْس" لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يُعبَّر عنه إلا بالأكل)..[١٣، ص: ٣٨، و٤١] ويمثل هذه المقابلات أسس الخطابي، ومن نحا نحوه، لقواعد بلاغية، أو تفريعات على قواعد بلاغية أخرى.

وسيأتي في مناسبة أخرى من هذا البحث مزيد من التقرير لهذه المسألة.

ثانيا: على المقابل التسليم بمقتضيات نظرية النظم، ومنها ما تدل عليه من اختلاف الصيغ باختلاف المعاني، والعكس

ذلك أن مطابقة الصيغة لمقتضى الحال والمعنى والمقام هي أُسُّ البلاغة وعمادها.

وعن معنى النظم قال عبد القاهر: هو (أن تضع كلامك الوضعَ الذي يقتضيه علم النحو، وتعملَ على قوانينه وأصوله، وتعرفَ مناهجه التي نُهجت، فلا تزيغ عنها)..[١٦، ص: ٨١].وضرب لذلك أمثلة، ووضحه وشرحه بمثل قوله: (ترى اللفظة المستعارة قد استُعيرت في عدة مواضع، ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحة لا تجدها في الباقي)..[١٦، ص: ٧٨]

ومن مشهور استدلالات عبد القاهر على اختلاف الحسن باختلاف الموقع، قوله في كلمة (الأخدع) وكيف أنها استُعملت مواضع فكانت نجما ساطعا، واستعملت في أخرى فشابهت عودا ذابلا.. قال.. (ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ "الأخدع")...[١٦، ص: ٤٦].

ولتأسيس المقابلات على هذا الأساس أثر كبير في تمييز الأساليب المتشابهة، وفي الفصل بين ما يعد سرقة أو غير ذلك، عندما يستفيد لاحق من سابق، ويقتبس منه بيتا أو معنى، كَثُر ذلك أو قَلَّ.

وهذا باب مهم من أبواب البلاغة، أفاض فيه المؤلفون وتفننوا، وانتهى عبد القاهر إلى أنه ليس من السرقة ما غَير فيه الآخذ صورةَ المعنى، أو كان له أي أثر في الصياغة، أثراً يُخرجه من تهمة المطابقة إلى عذر المشابهة. قال عبد القاهر: (وقد أردتُ أن أكتب جملة من الشعر الذي أنت ترى الشاعرين فيه قد قالا في معنى واحد، وهو ينقسم قسمين:

قسمٌ أنت ترى أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى غفلا ساذجا، وترى الآخر قد أخرجه في صورة تروق وتُعجب.

وقِسم أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع في المعنى وصوَّر)[١٦، ص : ٤٨٩] ، وبعد التقسيم مضى عبد القاهر في إيراد ما عزم على التمثيل به من الأبيات المتقابلات، فوضع بيتا بإزاء بيت يتفق معه في المعنى دون الصياغة والتصوير، ليدل بذلك على اثر الصنعة اللفظية في اختلاف المعاني الكامنة تحتها.

وهذا خلاف مذهب (المعنويين) الذين يدَّعون —كما يقول الدكتور محمد هدارة- على الشعراء سرقاتٍ كثيرة لوجود أدنى تشابه بين المعاني، أما (أصحاب اللفظ) فإن مَن يُؤمن مِنهم بالصورة الشعرية وتأثيرها القوي في فن الأدب، فينظرون إلى مشكلة السرقات على أساس التحوير الفني، فيدَعون الفرصة للشاعر ليُجدد في الصياغة والصورة الشعرية ما دامت المعاني مشتركة بين الناس جميعا[ينظر: ١٠، ص: ٤١١ وما بعدها، وكذا أيضا: ٢١، ص: ٢٠٦].

وعلى مذهب عبد القاهر الجرجاني في إجراء **المقابلة** بين متشابه المعاني المستعملة على لسان السابق واللاحق، والمنشيء والمعيد، والأصيل والمقلد جرى البلاغيون في ختم كتبهم ببحث (السرقات الشعرية وما يتصل بها من الاقتباس والتضمين والعقد والحل والتلميح، وغير ذلك[٨، ص: ٦٨٧.].

وإنما أردت من ذكر موضوع السرقة وموقف البلاغيين منها التوضيح لأهمية استيعاب المقابل بين النصوص لنظرية النظم وتقبله لها، وتفهمه لتبعاتها ومقتضياتها، وكيف أن ذلك من صميم مسلماته.

ثالثا: على المقابِل الإقرار بالقصد والعمد في استعمالات البلغاء لألفاظهم

واصطفائهم لأساليب بعينها، وإهمالهم لبدائلها الممكنة لهم:

ولا ضير في أن يكون ذلك القصد شعوريا إراديا، أو غير مشعور به. فمن علامات بلاغة المتكلم البليغ أن يسيل الكلام المختار على لسانه سيل الماء على منحدر الجبل، ولو لم يستحضر كامل شعوره بالفرق بين ما اختاره وما تركه، وما اصطفاه وما نفاه.. فقد صارت البلاغة له طبعا وسجية وجبلة.

وعن هذه المَلَكَة تكلم البلاغيون في تعريف البلغاء، فبها يَقتدرون بها على تأليف كلام بليغ[١٠، ص: ١٤].

ولولا تسليم المقابل بهذه المقدمة لوقع التشكيك في مقاصد البلغاء ولضاقت على النقاد مسالك الحكم بالجودة والرداءة، إذ قد يحتج المعارض لهم بأن ما توهمتموه اختيارا واصطفاء من البليغ لكلماته أو أساليب ما هو إلا تَقوُّل منكم عليه، وتحميل للكلام فوق طاقته.. إلى ما لا حدود له من التشويش والاعتراض بالافتراض.

ويترقى هذا الشرط إلى مرتبة أعلى مما قلنا إذا تعلق الأمر بالقرآن الكريم، وبلاغته، فإنه إن لم يعتقد الدارس لبلاغته المقابِل بين أساليبه أنه كله –أي القرآن- ذا بلاغة معجزة، تتسنم أعلى درجات التحدي والمَنَعة من التقليد والمحاكاة.. إن لم يعتقد ذلك فلن يصفو له القول في مواقع العبرة من مواضع العبارة.

وأضيف القول بأن مما يتنافى مع هذا المحفِّز المساعد على اكتشاف وجوه البلاغة بالمقابلة بين أساليبها: الادعاء بأنَّ من القرآن ما هو بليغ، وما هو أبلغ منه، وقد أخذ بهذا بعض الغابرين، وهذا يتنافى مع كون القرآن كاملا من كامل جل جلاله، كما يؤدي للتكاسل عن الاستفادة من الطاقة الكامنة في الأساليب المختلفة، وهي الطاقة التي يستحيل استقطابها في ظل هذا الموقف السلبي والتصور المسبق.. هذا القول الذي يؤدي إلى الادعاء بأن ما لا ندرك له وجها في البلاغة العليا من القرآن الكريم فليس إلا لكونه أقل بلاغة مما أدركنا وجهها فيه.. وهذه ثقة بالنفس عمياء، بل صماء وبكماء، قصيرة الحبل والحيلة.

والعلماء الذين بحثوا في تنوع أساليب القرآن، وأسرار التكرار، والتشابه فيه، لاسيما في القصص، حرروا نتيجة مهمة تنقض الاعتقاد بأن في القرآن ما هو أقل بلاغة من غيره[٢].

ولأبي هلال العسكري رأي في المسألة يوحي بالتوسط بين المذهبين، لكن محصلته النهائية نفي مذهب التفاوت، فقد ذهب إلى أن بعض القرآن أبلغ من بعض من وجهٍ، ثم من وجهٍ آخر يكون المفضول فاضلا، قال: ومن ذلك قوله تعالى: .. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء: من الآية٤٩)، وهذا أبلغ من قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (مريم: من الآية٦٠)، وإن كان قوله ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أنفى لقليل الظلم وكثيرِه في الظاهر، وكذا قوله

(٢) من أولئك العلماء: محمد بن جماعة، في كتابه: كشف المعاني في المتشابه المثاني، مطبوع، بتحقيق مرزوق على إبراهيم.

تعالى ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ (فاطر: من الآية١٣) أبلغ من قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ (الزمر: من الآية٤٣) ، وإن كان هذا أنفى لجميع ما يُملك في الظاهر)[٨، ص: ٢٦٨].

رابعا: على المقابل بين النصوص تجنب الاستسلام لبعض التوجيهات الشكلية للظواهر الأسلوبية

لجأ بعض من البلاغيين، والمفسرين لطرق مختصرة سدوا بها ثغرة العجز أو التقصير عن تقصي الأسرار المستكنَّة في بعض التعبيرات الأسلوبية، مما لم يظهر لهم وجهه البلاغي، جماليا كان أو دلاليا، كاكتفائهم بعلة (التفنن اللفظي)، أو(الزيادة للتأكيد)، أو (تحسين اللفظ، بالسجع أو شبهه)..

مثال ذلك قول أبي حيان مرّة: (يتقدم ما يقابل الأول ويؤخر ما يقابل الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ (فاطر/١٩) وقد يتأخر المتماثلان ، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ (هود/٢٤)، وكل ذلك تفنن في البلاغة وأساليب الكلام)[٢٢، ج: ٤/ص: ٤٢٧].

فمثل هذا التوجيه يقصر شوطا بعيدا عما هو حق الكلام البليغ من إنعام النظر، وإطالة الفكر، في نظائره ومتقابلاته.. لاسيما إن اكتفى به المفسر أو البلاغي، ولم يمض خطوة أخرى في بيان ما وراء هذا التفنن، وفي بيان ما يصاحبه من وجوه الدلالة المتميزة.

فأما إن قيل بالتفنن في العبارة أو ما شابهه من التوجيهات الشكلية ثم ترقّى الدارس إلى بحث أوجه البلاغة الألصق بالدلالة فلا ضير في ذلك.

وقد فعل ذلك بعضٌ من كبار البلاغيين والمفسرين، كالألوسي، والطاهر بن عاشور في مواضع متعددة من تفسيريهما، وهما من هما في العناية بالجوانب البلاغية القرآنية.

فإذن على المقابل بين النصوص أن يطيل الفكر، ويُدِقَّ النظر في البحث عن أسرار الزيادة والتغيير والتبديل بين اللفظ والآخر، أو بين التركيبين المتشابهين في الموضعين المختلفين..، أو بين التركيب وما يمكن أن يحل محله من البدائل الأخرى.

ومن المناسب لتوضيح أهمية هذا المطلب ذكر مسألة المتشابه في القرآن الكريم... فإن من أشهر مظاهر التشابه (إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة. ويكثر في إيراد القصص، والأنباء)كما قال الزركشي (المتوفى سنة٧٩٤هـ).

وفي كلامه عن الحكمة من هذا التشابه يكشف الزركشي جوانب من أهمية البحث في الأسرار الدلالية والجمالية للتعبير المختلِف، فيقول: (وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب، ليُعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك، مبتدأ ومتكرِّرا)[٢٣، ج: ١/ص: ١١٣].

ثم سرد عددا كبيرا من الآيات القرآنية، يذكرها مقابلة لما يشابهها من الآيات. ثم ختمها بالمقارنة بين سياقي آيتين متشابهتين، مقارنةً كشف جوانب من أسرار الاختلاف: ففي سورة البقرة ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ (البقرة: من الآية٤٩)، وفي سورة إبراهيم ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ (إبراهيم: من الآية٦) بالواو. قال الزركشي:

وَوجْهُه: أنه في سورة إبراهيم تقدَّم ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم: من الآية٥)، واللائق أن يُعدد امتحانهم تعديدا يؤذن بصدق الجمع عليه لتكثير المنَّة، ولذلك أتى بالعاطف، ليؤذن بأن إسامتهم العذاب مغاير لتذبيح الأبناء وسبي النساء، وهو ما كانوا عليه من التسخير، بخلاف المذكور في البقرة، فإن ما بعد ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ تفسير له، ؛ فلم يُعطف عليه، ولأجل مطابقة السابق جاء في الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ (لأعراف: من الآية١٤١) ليطابِق: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ (لأعراف: من الآية١٢٧).)[٢٣، ج: ١/ص: ١٢٠]

والأمثلة كثيرة لهذا الصنيع البارع في استكناه وجوه الإعجاز مما هو **مختلف أقل الاختلاف ولو في حرف منه.**

لقد أسهم الاعتناء بالمقابلة في ضوء النظر في المقامات وما ارتبط بها من الأساليب في كشف وجوه من البلاغة، وأسس لقواعد جديدة وأصَّل لأخرى معروفة.

ولعله لهذا السبب ربط ابن جماعة(المتوفى سنة ٧٣٣هـ) رحمه الله، برباط وثيق بين بحث المتشابه القرآني وعِلم البلاغة، وذلك في مقدمة كتابه المفرد في هذا الفن - أعنى فن المتشابه - فقال:

(قد عُلم أن القرآن نزل بأفصح لغات العرب وكلامها، وتتضمن فنون أنواع فصاحتهم وأقسامها، توسيعا لمجالهم في معارضة شيء منه إن قَدروا، وبيانا لعجزهم عن الإتيان بمثله ولو تَسوروا، فلذلك تنوعت موارده، وتشعبت مقاصده، وعمت فوائده، وناسبت ألفاظه مواضعها، وصادفت فصاحته مواقعها)[٢٤، ص: ٨٧].

وفي هذا النص تصريح باقتضاء هذه المتشابهات للمقابلة بينها، وليس الموازنة .. أقول هذا إذكارا لما استهللت به هذا البحث من البيان لتميز الموازنة باقتضاء التفضيل والترجيح، على خلاف المقابلة التي لا تقتضي أيا منهما.. وإنما هي تُخضع الكلام لظروف إنشائه ومقامه، وتصفه بالبلاغة منسوبا إليه، وإن لم يكن مستحقا للوصف بها لو وقع في مقام آخر لا يلائمه.

فبهذا اتضح أن من أهم أولويات المقابل بين النصوص الإقرارُ بمقتضيات (نظرية النظم) كما هي في مفهوم عبد القاهر.

المبحث السادس: خطوط المقابلات ومساراتها النشطة في التراث البلاغي العربي

قد أُجريت المقابلات البلاغية في مسارات شتى، وكلها أنتجت - وإنْ بتفاوتٍ فيما بينها - قواعدَ بلاغية جديدة، أو تفريعات وتقسيمات لقواعد معروفة، أو أسْدتْ نفعا لهذا أو ذاك..

وسأعرض فيما يلي أهم هذه المسارات الفاعلة النشطة، ثم أعرض - في المبحث السابع- بعض المسارات التي خمد أُوراها في بواكير التعرُّف عليها لدى البلاغيين، والبحث البلاغي.

فأما المسارات ذات الفاعلية المستمرة، فمنها:

الأول: مسار المقابلة بين بلاغات أجناس الكلام النثرية والشعرية

فيدخل فيها مقابلة النصوص الشعرية بعضها ببعض، ومقابلة الشعرية بالنثرية، ومقابلة بعض آيات القرآن الكريم ببعض نثر البشر، أو نظمهم.

ومن أشهر المقابلات التي سعت لكشف وجوه المعاني، هذه المقابلات المستفادة من أجوبة ابن عباس رضي الله عنهما على سؤالات نافع بن الأزرق، فقد فسر ما سأله عنه من غريب القرآن بما يقابله من كلام العرب، تقريبا له، وليس من باب جعل الشعر أصلا للقرآن، كما زعم بعض من لا عِلم لهم، قاله أبو بكر بن الأنباري، وأضاف: (وليس الأمر كما زعموا مِن أنا جَعلنا الشعرَ أصلا للقرآن، بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشعر، لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ (الزخرف: من الآية٣))..[ينظر: ٢٥، ص: ٢٩٤]

ومقابلات ابن عباس رضي الله عنهما -ونحوها[ينظر: ١٣، ص: ٣٦] - مقابلات تفصيلية إفرادية، لكن من المقابلات ما أخذ طابع الشمول والحُكم الكلي، كقول بعض الناظرين في وجوه الإعجاز القرآني: إن منها (نقض العادة)، ومعناه عندهم: أن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة، منها الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث، فأتى القرآن بطريقة مفرَدة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحُسن تَفُوْق به كل طريقة)..[١١، ص: ١١١].

ومن أقدم المقابلات الكلية الدالة على إعجاز القرآن ببلاغته مقابلة عتبة بن ربيعة بين ما عَلِمه وَوَعَاه من فنون كلام العرب، وبين ما سَمعه من القرآن الكريم على لسان رسول الله ﷺ إذ أنصت عتبة، حتى إذا ما انتهى رسول الله ﷺ انكفأ عتبة عائدا إلى أصحابه، ليقول لهم: (إني سمعت قولا والله ما سمعت بمثله قَطُّ، وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة)..[١٥، ص: ١٢٣-١٢٤].

ويتبادر **سؤال مهم بعد تقرير** هذا المسار من مسارات المقابلات البلاغية، وهو أننا قد أقررنا بتميز القرآن على هذه الشاكلة والقدر العظيمين عما سواه من سائر الكلام، فكيف يُتاح تطبيق ما استنبطه البلاغيون من وجوه بلاغته لمن أراد تطبيقها على ما سواه من الكلام؟

والجواب هو أن آحاد البلاغات القرآنية غير ممتنع أن يوجد مثلها للبشر، بقصد أو بغير قصد، سيان، لكن الممتنع والمستحيل هو حصول القوة والاقتدار على الإتيان بمثل ما وقع به التحدي، بلاغة وبيانا، لفظا ومضمونا، وهو الإتيان بعشر آيات مثله، أو بمثل أقصر سورة منه.. فهذا هو المستحيل الممتنع. ولولا أن الاستحالة مقصورة على هذا القدر لما استقام التحدي والإعجاز أصلا، إذ حينذاك ستكون أُسس الإتيان محجوبة عن البشر، فلا يستقيم التحدي، لسلب القدرة عليه أصلا. فإذا لم يكن ذلك كذلك فإن إطاقة البشر لأجزاء من بلاغته غير ممتنع. قال الرماني:

(وظهور الإعجاز في الوجوه التي نُبيِّنُها يكون باجتماع أمورٍ يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة في أعلى طبقة، وإن كان قد يلتبس فيما قَلَّ بما حَسُنَ جِدا لإيجازه وحُسْنِ رونقه وعذوبة لفظه، وصِحة معناه، كقول علي رضي الله عنه: "قيمة كل امرئ ما يحسن"، فهذا كلام عجيب يغني ظهور حُسنه عن وصفه، فمِثل هذه الشذرات لا يظهر بها حُكم.

فإذا انتظم الكلام حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم الإعجاز)..[١١، ص٧٨].

ومع هذا فبالمقابلة أَثبت بعضُ البلاغيين أن في أقصر آي القرآن ما يفوق الذي يقابِله من كلام البشر.. وكان في هذه المقابلات إغناءٌ لقواعد البلاغة، كما يظهر في مقابلة قوله تعالى ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ (البقرة: من الآية١٧٩)، بقول العرب فيما هو من خيار حكمتهم: (القتل أنفى للقتل)، ففضلا عما وضحته هذه المقابلة من فضل القرآن على ماسواه، فكذلك أسست، أو رسخت مفاهيم بلاغية مهمة في مواضيع الإيجاز، إيجاز الحذف وإيجاز القِصَر، والتقديم والتأخير؛ تقديم (لكم) وتأخير (حياة)، والتعريف للقصاص، والتنكير لحياة.. [ينظر: ١١، ص ٧٧- ٧٨، و٨، ص: ١٧٥].

وفي الصناعتين مقابلة في قصة شاعر يأخذ التشبيه من القرآن وينظمه، قال أبو هلال العسكري في ختامها: فأين يقع هذا من ذاك ![٨، ص: ٢٤٥].

وفي الصناعتين أيضا مقارنة بين كلام الخلق وكلام القرآن في السجع والمزاوجة[٨، ص: ٢٦٠]

وأما مقابلة النثر بالشعر، لكشف خصائص بلاغة كلٍّ، فقد كان لأبي هلال العسكري قصب السبق فيها بين المتقدمين، ولم أر فيما اطلعت عليه من كتبهم البلاغية من ساواه في هذا القصد والاهتمام، وكادت أن تتشكل على يديه بلاغة خاصة بالنثر[ينظر ٨، في أمثلة لا تحصى تفرقت بين الصفحات الأولى منه، حتى ص ١٣٦، وغيرها.]، لولا أنْ وئدت هذه البداية في مهدها بتجاهلها فيما بين خلفاء أبي هلال.

وكانت لدى الجاحظ نتفٌ من هذه المقابلات، كقوله: (وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خُطَبهم الطوال بشيء من الشعر، ولا يكرهونه في الرسائل إلا أن تكون للخلفاء)[٦، ج ١/ص١١٨].

الثاني: من مسارات المقابلات البلاغية النشطة: المقابلة بين القدماء والمحدثين

وليست لتفضيل متقدم على متأخر، أو العكس، ولكنها جاءت لبيان منهج كل، أو الإشارة إليه، كما فعل ابن المعتز في كتابه الرائد لعلم البلاغة، حيث كان يعقِّب بذكر شيء من شواهد فنون البديع من كلام المتأخرين بعد شواهده من كلام المتقدمين[ينظر ٧، ص: ١١٣، ٩٠، ١٤٢...]. ونعلم أن ابن المعتز لم يفضل متقدما على متأخر في أصل الحسن ولكن في الإكثار والإقلال، والسجية والتكلف..

وربما أدت مقابلة بديع هؤلاء ببديع أولئك إلى لفت نظر البلاغيين نحو ظواهر أسلوبية ثابتة، أو ظواهر يقتضيها عصر فتظهر فيه، بينما تختفي من عصر لا يقتضيها.

ومن نماذج هذا المسار في المقابلات البلاغية، المقابلة بين السابق واللاحق في معاني الشعر، وما أفسحته هذه المقابلات من تنويع (أقسام السرقة والأخذ) إلى أنواع شتى أركض فيها البلاغيون خيل التحقيق والتدقيق، على نحو ما ألمحت إليه سابقا.

الثالث: من مسارات المقابلات البلاغية: المقابلة بين مناهج الدرس البلاغي، أو مناهج القول الإبداعي

ففي المقابلة الأولى بيانٌ لما لكل مدرسة ، أو منهج، من الفضل والمزية، وبيان آخر لما كان اعتراهما من النقص والخذلان، كمقابلة أبي هلال العسكري الموجزة بين خصائص المدرستين أو المنهجين الأدبي والكلامي، إذ قال عند التقديم لكتابه (الصناعتين): (وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صُنَّاع الكلام، من الشعراء والكُتاب)[٨، ص: ٩].

وقد سبقه الجاحظ في التلميح لاختصاص المتكلمين بمزية في البيان وفضيلة في البراعة والإتقان، إذ لم ير – كما قال- قوما أَمثل منهم طريقة في البلاغة، فقد التمسوا من الألفاظ ما ليس بوحشي ولا ساقط سُوقي، وكانوا أكثر من غيرهم بَصرا بجوهر الكلام، وكانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء[ينظر ٦، ج ١/ص ١٣٩].

وبمرور الزمن ازداد الامتياز بين المدرستين وضوحا وتحديدا، ثم انضمت إليهما مدرسة بلاغية ثالثة تَعثَّر عندها ركب البلاغة، وهي المدرسة الفلسفية، التي ركزت جهدها في قضايا الجدل المنطقي وحدوده، وتقسيماته وتفريعاته، وتباعدت كثيرا عن سبيل المدرستين الأوليين، وإذا كان كلامنا هذا موازنة، بحسب المفهوم الذي صدرنا به البحث، إلا أن الكلام عندما يدور في فلك البيان لمزايا المدرستين الأوليين وخصائصهما يكون حينذاك مقابلة ومناظرة، لأن لكل منهما مزاياه وفضائله.

فالمدرسة الكلامية تتميز بعنايتها بالتحديد اللفظي ، والتعريف والتقسيم، والحرص على ضبط القاعدة وتحرير معالمها.

وتتميز المدرسة الأدبية بالإكثار (من الشواهد، مع الإقلال من التعاريف والقوعد والأقسام، والاعتماد في التقويم الأدبي على الذوق الفني [...] .

وتعنى المدرسة الكلامية بإعجاز القرآن[...] على حين تُعنى المدرسة الأدبية بالتكوين الأدبي، والتمرينِ على صناعة الجيد من الكلام وتربية الذوق الناقد)[٢٦، ص: ٩٦].

والتقت مزايا المدرستين في منهج متكامل لدى عبد القاهر الجرجاني، قُبيل انحراف مسار البحث البلاغي نحو الجمود بسبب طغيان النظر الفلسفي على الذوق الأدبي، والإسهاب في أمور لا تمت لحاجة البلاغي بصلة.

وفيما يخص النوع الثاني من هاتين المقابلتين؛ أعني: المقابلة بين مناهج القول المبدع بيانا لدقائق الفروق في العبارة والتصوير، والعناية والتزويق، فسنراها ماثلة في عديد من القصص النقدية التي ساقها جامعو التراث النقدي والبلاغي، كالمرزباني في الموشح، وتحكي طرفا من المقابلات، التي لم تقصد –أصلا- لتفضيل طريقة على أختها بقدر ما تعمد إلى إلقاء الضوء الكاشف عن عيب أو المُجلِّي لفضيلة ومزية..

من أمثالِ هذه القصة الموشَّحة بالثناء على جَمعٍ مجتمِعٍ من الشعراء، جاء في عقَبه ذكر لأوصاف مختلفة باختلاف الشعراء.. ففي كتاب (الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء) قال المرزباني: اجتمع الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب، والمخبّل، التميميون، في موضعٍ، فتناشدوا أشعارهم، فقال لهم عبدة: والله لو أن قوما طاروا من جودة الشعر لطِرتم!، فإما أن تخبروني عن أشعاركم، وإما أن أخبركم، قالوا: أخبرنا. قال: فإني أبدأ بنفسي. أما شعري، فمِثل سقاء وكيع –وهو الشديد يَصنعه الرجل فلا يسرب عليه، أي لا يقطر، وغيره من الأسقية أوسع منه. وأما أنت يازبرقان فإنك مررت بجزور منحورة فأخذت من أطايبها وأخابثها، وأما أنت يا مخبّل فإن شعرك العِلاط والعراض)[٢٧، ص: ٩٧].

فهذا مثال لمسار المقابلة بين الشعراء وقد كان له أثر في نشأة البلاغة وتطويرها، والإرشاد لما ينبغي أن يبحث من المسائل المتصلة بها.

الرابع: من مسارات المقابلة في البلاغة: ما يكون بين أحوال التركيب والتصوير، وخصائصها

كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير، والتشبيه والاستعارة، والكناية والمجاز، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، وغير ذلك.

كما قال أبو هلال العسكري - في كلمة سبقت الإشارة إليها - مزكيا مثالا لهذا المسار، وهو مثال في المقابلة بين الكلام الموجز الغني بالمعاني المفصلة، وبين المفصل منه، وذلك قوله: (فمعاني هذا الخطاب أكثر من ألفاظه، وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك فحُلَّها، وابنها بناء آخر، فإنك تجدها تجيء في أضعاف هذه الألفاظ)[٨، ص: ١٧٨].

وبمثل هذه النبرة المنهجية أثبت عبد القاهر الجرجاني -فيما بعد- كثيرا مما ادعاه من الفضل والمزية في أساليبَ ناسَبَتْ مقتضياتِها، وقَدَّمها على أساليب أخرى لم تناسبها، وإن كان للمفضول هنا مثل ما لتلك الأساليب الفاضلة من حق التقديم والتصدير بشرط أن تطابق أحوالا أخرى تليق بها.

كمقابلته في الدلائل بين النظم الذي اختاره إبراهيم بن العباس في قوله:

فلو إذ نبا دهر، وأُنكر صاحبٌ وسُلِّط أعداءٌ وغاب نصيرُ

تَكون عن الأَهواز داري بِنَجوة وَلكِن مَقادير جرت وَأمورُ

قال عبد القاهر: (فإنك ترى من الرونق والطلاوة ومن الحسن والحلاوة، ثم تتفقد السبب في ذلك، فتجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو (إذ نبا) على عامله الذي هو (تكون) [...]ثم أنْ قال (تَكُون) ولم يقل (كان)، ثم أن نكَّر (الدهر) ولم يقل (فلو إذ نبا الدهر)) إلخ[١٦، ص: ٨٦].

وفي تِلو هذه المقابلة عقد عبد القاهر فصلا كالخلاصة لها ولما أشبهها وعنونه بقوله (فصل: في أن هذه المزايا في النظم، بحسب المعاني والأغراض التي تؤم) ومما قاله فيه: ..(اعلم أن **الفروق والوجوه كثيرة**)..

ثم أثبت هذا المَعْلم في استقراء مزايا الحُسن والجمال وصَوْغها في قواعد بعد ذلك، ليتسنى تطبيقها على ما يطابقها من الأحوال والاعتبارات، وأيد هذا القصد بمثال مفصل، فقال: (تفسير هذا أنه ليس إذا راقك التنكير في "سؤدد" من قوله "تنقل في خلقي سؤدد"، وفي "دهر" من قوله "فلو إذ نبا دهر"، فإنه يجب أن يروقك أبدا وفي كل شيء، ولا إذا استحسنت لفظ ما لم يُسمَّ فاعله في قوله "وأُنكر صاحب" فإنه ينبغي أن لا تراه في مكان إلا أعطيته مثل استحسانك ههنا = **بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تَؤم**)..[١٦، ص: ٨٧].

وهذا النص برهان واضح في تأكيد الفرق بين الموازنة والمقابلة، في البلاغة، بل في غيره، فالبلاغي يقابل النظير بالنظير، ويحكم بجودة كلٍّ في مقامه اللائق به لا مطلقا.وأما الموازِن فإن يعمم الحكم بالجودة أو الرداءة .

وهذا النص أيضا برهان واضح على أهمية مسار المقابلة بين أحوال التركيب، وأثر هذه المقابلة وقيمتها لمن أراد استنباط القواعد منها، وتمهيد سَنَن البلاغة للسالكين.

وإن مضينا مع غير عبد القاهر متقدمين في التأريخ أو متأخرين فسيلٌ عارم من الأمثلة لهذا المسار، وبراهين واضحة على أهميته لدارس البلاغة والمؤلِّف فيها، كما في مقابلة أبي هلال العسكري بين الحذف والترك، والتطويل والتقصير، مقابلات أنتجت قاعدة لنوع من الحشو، سماه البلاغيون فيما بعد بـ(الاعتراض)[ينظر: ٨، ص: ٨٤].

وقابل أيضا بين شواهد من التعقيد، فيما يمكن اعتباره تأسيسا للفرق بين ما عده البلاغيون (تعقيدا معنويا)، وميزوه عن (التعقيد اللفظي)[ينظر: ٨، ص: ١١٨].

وفي مواضع أخرى منه مقابلة توحي بأهمية العناية بالفروق البلاغية بين التنكير والتعريف[ينظر: ٨، ص: ١٤٩] ، والتقديم والتأخير[ينظر : ٨، ص: ١٥١].

والرماني كذلك كان يقابل بين الإيجاز والتقصير، والإطناب والتطويل، ثم يقابل بين نوعين من الإيجاز، اكتشفهما بعد مقابلة الشواهد بالشواهد؛ الأول منهما: إظهار النكتة بعد الفهم لشرح الجملة، والثاني: إحضار المعنى بأقل ما يمكن من العبارة. ثم بَيَّن متى يكون هذا، وما مقامه، ومتى يكون ذلك ومقامه[١١، ص٧٨- ٧٩].

وأما التصوير فمن أمثلة المقابلة فيه ما نجده في مواضع كثيرة من كتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر، وهي مقابلات غنية بالقواعد الصريحة والضمنية، بل هي منجم لها[ينظر: ٤، ص: ٩٢، وما بعدها] ، فمنها استخرج القواعد كل من الزمخشري السكاكي و القزويني، وغيرهم.

وأطلق عبد القاهر وصف المقابلة على جُملة من وقفاته مع أصناف متغايرة من التشبيه، ثم مثل لها بقوله: (ومن اللطيف في ذلك أن تنظر إلى قوله:

يُتابِعُ لاَ يَبْتَغِي غَيرَه ... بأبيضَ كالقَبَس الُملْتَهِبْ

ثم تقابلَ به قولَه:

جَمَعْتُ رُدَيْنِيّاً كأنَّ سِنَانَه ... سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصلْ بدُخَانِ)...[٤، ص: ١٦٣].

والرماني كذلك أسهم في المقابلة بين طرق التصوير، وضمنها التفريق بين أقسامٍ من التشبيه والاستعارة [ينظر: ١١، ص: ٨٠... و: ٨٥..].

و لابن رشيق القيرواني مشاركات مهمة أيضا في مسار المقابلة بين أساليب التصوير والحكاية والتمثيل، كقوله: (وأصل التشبيه مع دخول الكاف أو مِثل أو كأن وما شاكلها: شيءٌ بشيءٍ، إلى أن صنع امرؤ القيس في صفة عقاب: كأن قلوب[...]فشبَّه شيئين بشيئين في بيت واحد، **واتَّبعه الشعراء في ذلك**[...]وحُكي عن بشار أنه قال: ما قرَّ بي القرار مذ سمعت قول امرئ القيس "كأن قلوب الطير رطبا ويابسا"، **حتى صنعتُ**:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ثم أضفى ابن رشيق حسه الفنى على هذه القصة فكشف عن اختلاف التصويرين، فقال: (**فإن كان** مراده - يعني بشارا - الترتبَ فصدق، **ولم يقع بعد بيت** امرئ القيس في ترتيبه كبيته، **وإن كان المراد** تشبيهين في بيتٍ فقد قال الطِرماح [...]وهذا في نهاية الجودة)[١٤، ج ١/ص: ٤٩٤- ٤٩٥].

الخامس: من مسارات المقابلات: المقابلة بين الألفاظ وبدائلها في حيز التركيب

قد مر الكلام على قضية الترداف، وموقف البلاغيين والمفسرين منها.

وما يضاف هنا يتمثل في إشارات تناسب المقام.

فللبلاغيين وغيرهم إشارات متقدمة في التفريق بين بلاغات الألفاظ؛ ليس للفظ معزولا عن سياقه، ولكن في داخل سياقه ومقامه الذي يساق فيه. وهي الإشارات التي صنعت عديدا من القواعد البلاغية.

فعند أبي هلال العسكري مقابلات بين شعراء وناثرين استعملوا ألفاظا بأعيانها، فأحسن فريق وأساء الآخرون، لاختلاف مقام الاستعمال، أو لِخلو نظم المحسِن فيها من عيب ارتكبه المسيء فزلت به إلى الحضيض قدمه، وهذا كله في باب الأخذ والسرقة [ينظر : ٨، ص: ٢٣٢].

ومن ذلك مقابلةٌ جرت في كلام للخطابي رحمه الله عن سر اختيار {فاعلون} بديلا للفظ {مؤدون} في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ (المؤمنون: ٤) فالمعارضون قالوا: إن المستعمَلَ في الزكاة المعروفُ لها من الألفاظ؛ كالأداء والإيتاء والإعطاء، ونحوها.

قال الخطابي: (الجواب: أن هذه العبارات لا تستوي في مراد هذه الآية، وإنما تُفيد حصولَ الاسم فقط، ولا تزيد على أكثر من الإخبار عن أدائها فحسب.

ومعنى الكلام ومرادُه: المبالغة في أدائها والمواظبةِ عليه، حتى يكون ذلك صفة لازمةً لهم، فيصير أداءُ الزكاة فِعلا لهم مضافا إليهم، يُعرفون به، فهم له فاعلون)...[١٣، ص: ٤٥].

ومن المهم التنبُّه للقيمة المنهجية لاحترازه بقوله (**في مراد هذه الآية**)، إذا بها يربط الخطابي الحسنَ بالمقام الآني، ويُهيئ بذلك الربط لاستيلاد قاعدة في اختيار الألفاظ البالغة في الحسن مبلغها، حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه.

المبحث السابع: مسارات المقابلات غير النشطة في التراث البلاغي العربي

شاعت بين المتقدمين مقالة صيغت في قالب الإيجاز، مع ما تحمله من صدق المضمون إلى حد بعيد، وهي قولهم: إن العلوم ثلاثة علم نضج واحترق[...]، وعلم لا نضج ولا احترق، وهو علم البيان والتفسير، وعلم نضج وما احترق)..[٢٦، ص: ٩٦] ومع أن حقيقتي النضج والاحتراق قد يُفهمان بوجوه مختلفة، لكن جملةَ هذا القول دالة على أننا أمام عِلم قد أُهمل بعض منه، ونُسي بعضٌ آخر. واستعصى –بمجمله- على الإحاطة والحصر والتحديد، لكونه علما ذوقيا فلا قيود أو حدود للاختلاف حوله، وهذه مزية لعلمي البلاغة والتفسير من وجه ما؛ إذ هي تبقيهما في دائرة الضوء والاهتمام.. و تنادي بالقول أن هذين العلمين ما زالا منصوبين على مِرجل الإعداد والتطوير.

وفيما يلي قراءة لمسارات المقارنة المهملة، وفيها زيادة تفصيل وتمثيل لما سبقت الإشارة إليه منها:

الأول: من المسارات المهملة: المقابلة بين بلاغة الألفاظ المُمكِن استعمالُها في الدلالة على المعنى نفسه

فلم يحظ هذا المسار بما يجب له من العناية والتأصيل والتطوير، لا سيما عند البلاغيين المتأخرين، إذ لم يُعرجوا عليه إلا في النزر اليسير من تقعيداتهم، ومنها إشارتهم إليه عند بحث الفصاحة وشروطها، إذ اشترطوا للفظ الفصيح: خلوه من الغرابة والتنافر ومخالفة القياس..

ومنها إشارة الخطيب إليه بقوله (وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام)[١٠، ص: ١٢]

بينما حَفلت بالتنويه به مقالات المتقدمين، وإن لم يتعمقوا فيه، ولم يمتدوا في دراسته إلا إلى أقرب مَدى.

ويُعد ابن سنان الخفاجي (المتوفى سنة٤٦٦هـ)من كبراء المتقدمين الذين تنبهوا لأهمية القِيم البلاغية المستودعة فيما ينتقيه البليغ من المفردات الدالة على مقاصده، والمناسبة لغرضه، حيث يقول: (ولا يمنع أن يكون للشيء الواحد اسمان، يُستعمل أحدهما في موضع ويُستعمل الآخر في موضع آخر.

وهذا شيء **إنما أصله العُرف والعادة**، دون أصل وضع الأسماء في اللغة، ألا ترى أن الإنسان إذا مَدحَ ذَكر "الرأس والكاهل والهامة"، وإذا هجا ذَكر "القفا، والأخادع والقذال"، وإن كانت معاني الجميع متقاربة.

وليس يحسن أن يُخاطَب الملوكُ فيقال لبعضهم: وَحَقُّ يا فوخِك أو قمحدودتك أو أخادعك أو قذالك أو قفاك، قياساً على أن يقال له: وحَق رأسك. لأن **الاستعمال يختلف** في الألفاظ وإن كان المعنى فيها غير مختلف على ما قدمناه)[٢٨، ص: ١٥٦. وينظر أيضا: ٨، ص: ١٤٩].

ثم حظي هذا المسار باهتمام أكبر عند المفسرين ، بل عند عامة علماء الدراسات القرآنية، بمن فيهم الباحثون في قضية الإعجاز، كعبد القاهر الجرجاني في الرسالة (الشافية)، والخطابي في (بيان إعجاز القرآن)، والسيوطي في (معترك الأقران)، وغيره، والزركشي في (البرهان في علوم القرآن).

وكأن هؤلاء العلماء قد تسلموا قيادة هذا المسار من أيدي البلاغيين والنقاد المتقدمين.

ولا تكاد تجد تفسيرا مطمئنا لتخلي علماء البلاغة عنه، وهو بهذا القدر من فخامة الشأن.

ولعل السبب يرجع إلى استنفاد قوة متقدميهم في العناية بجوانب الصياغة والتركيب والتصوير والتحسين التي انشغلوا بها عن دراسة المفردة وأسرار اصطفائها.. ثم تلاهم المتأخرون فحذوا حذوهم، ومضوا في الطريق المألوف، ولم يركضوا خيلهم في متسعات أرض البيان البِكر المجهولة.

و الزركشي (المتوفى سنة٧٩٤هـ)من علماء الدراسات القرآنية الذين وفَّوا لهذا المسار بعض حقه. وقد سعى للتذكير بأهمية ربط اختيار اللفظ بالمقام والحال، وقرر اختلاف الألفاظ باختلاف مراد المتكلم، فهو الذي يختار لكل

موضع من الألفاظ ما يليق به، (وإن كانت مترادفة، حتى لو أبدل واحد منها بالآخر ذهبت تلك الطلاوة، وفاتت تلك الحلاوة).. وضرب أمثلة، وإن لم يفصلها..[٢٣، ج: ٢/ص: ١١٨].

ثم أَتْبَعَ هذا بالكلام عن دقة اختيار القرآن لألفاظ المقام الذي يتكلم فيه، فإنه إن كان المقام ترغيبا جاءت ألفاظه عذبة رقراقة هادئة، على نحو قوله عز اسمه ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: من الآية٥٣)، وإن كانت في الترهيب جاءت مجلجلة صاخَّة، كما تتصور في قول الحق عز وجل: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ (النساء: ١٤)..

إلى تفاصيل أخر أضافها الإمام الزركشي في هذا السياق، وبَين فيها كيف نتحسس الفرق بين مقامٍ وما يضاده، وما الوجوه التي يُعتبر بها التفريق والمقابلة، ويستند فيهما إليها.[ينظر: ٢٣، ص: ٢/ص: ١١٩-١٢٠]

الثاني: مما نال الإهمال من المسارات: المقابلة بين بلاغات اللغات

أي بين بلاغة اللغة العربية وبيانها وفصاحتها، وبين بلاغات اللغات الأخرى المعروفة في تلك الأعصار.

فمع أن كتب المتقدمين كالجاحظ حَفلت بتلميحات رائدة في هذا الطريق، إلا أنها لم تُستثمر من بعدهم إلا قليلا، ثم طواها النسيان.

بل بقي منها إشارات سلبية أضرت بهذا العلم، كالقول بأن البلاغة مقصورة على العرب، وهي من مقولات الجاحظ، وبها صرف النظر عن مقارنات كان من الممكن أن تزود البحوث البلاغية العربية بثروة غنية، حيث قال: (البديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان)[٦، ج ٤/ص٥٥].

ولعله تساهل في هذا التعبير حين كان آخذا بعصا الدفاع عن مآثر العرب في الشاعرية والخطابة، ضد هجمة الشعوبيين الشرسة تجاه كل ما هو عربي، ولو كان ذا نفع غير خفي، لكن روح العنصرية تسعى لدَرْجِهِ في طَيِّ الإهمال والنسيان، بل وربما سعت لتحويله من كونه سمة مدح إلى أن يكون صفة ذم.

وأما فيما سوى هذه المقالة فللجاحظ مقابلات ومقارنات استحدثها أو حكاها بين العرب وغيرهم، كما في ذكره لبعض خصائص خطابة الزنج[٦، ج: ٣/ص:١٢- ١٣]، وخطابة الهنود والفرس واليونان، ومأثور حكمهم[٦، ج: ٣/ص: ١٤]، لكنه يَخلص إلى القول بأننا (لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس، فأما الهند فلهم معانٍ مدونة [...] ولليونان فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق [يعني أرسطو] نفسه بَكِيَّ اللسان) ثم يمضي في تأكيد أحقية العرب بإمامة الأمم في الخطابة، بعد أن يقارن بينهم وبين الفرس، فيقول: (وفي الفرس خطباء إلا أنَّ كل كلامٍ للفُرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فِكرة)[٦، ج: ٣/ص: ٢٧].. وأما العرب فكل

شيء كان لهم فهو (بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة)[٦، ج: ٣/ص: ٢٨].

وقد استطاع (علم الأسلوب) الحديث، أن يفي ببعض من حق هذا المسار من مسارات المقابلة البلاغية، فهذا العلم (يدرس مثلا أساليب التعجب والاستفهام.. من ناحية مزايا الصيغ المختلفة في لغة معينة مقارنة بغيرها من اللغات من جانب، وبالوظائف المشابهة لها في نفس اللغة من جانب آخر، فهي ذات طابع مقارن أصيل، كما أشرنا من قبل، ولم يكن هذا الاتجاه واردا بطبيعة الحال في دراسة البلاغة التقليدية التي تَخلط -بمنطق عصرها- بين المباحث النحوية والدلالية وبعض التحليلات الجزئية الأسلوبية والتي لم تتصور أن تقيم أية مقارنة منظمة بين وسائل اللغة العربية في التعبير ووسائل اللغات الأخرى، حتى تلك التي كان غالبا ما يجيدها علماء البلاغة مثل الفارسية واليونانية)[٢٩، ص: ١٦٠]

ولم يكن الجاحظ هو الوحيد بين البلاغيين المهتمين بالتلميح لبلاغات الأمم الأخرى، بل وجد آخرون، كابن رشيق الذي ذهب إلى الزعم المتسرع بأن المجاز مخصوص بلغة العرب[١٤، ١/ ٤٥٥]. وهذا على خلاف مسلك أبي هلال العسكري، الذي نَوَّهَ ببلاغات الأمم الأخرى، وأكد أن لكل لغة بلاغتها الكاملة فيها[٨، ص: ٢٤٣] .وكان أبو هلال أرسخ قدما في البلاغة والنقد من ابن رشيق.

وأما عبد القاهر الجرجاني فجرى في مجراه المعتاد من التحقيق والتفصيل الرزين، مؤكدا أن البلاغة نوعان، منها ما هو معنوي الاعتبار والتصرف والنسبة، ومنها ما هو لفظي شكلي الاعتبار، فالأول من النوعين لا تختص به لغة دون أخرى، كالمجاز، والتشبيه. وأما النوع الثاني فبخلافه، ومنه الاستعارة غير المفيدة، فالعرب وضعت للعضو الواحد أسامي مختلفة بحسب اختلاف أجناس الحيوان مثلا، نحو وضع "الشفة" للإنسان، و"المشفر" للبعير، وما شاكلها من الاختلافات التي ربما وجدت في غير لغة العرب، وربما لم توجد[٤، ص: ٣٠، وتنظر فهارس محمود شاكر على الكتاب، ص: ٤٧٤].

ومما يتعلق بهذا المسار ما قاله من امتناع ترجمة الاستعارة غير المفيدة، يعني (اللفظية)، وإمكان ترجمة المفيدة أي المعنوية. لأن المفيدة شركة بين أجيال البشر، غير خاصة بالعربية وحدها.[٤، ص: ٣٤ ، وتنظر فهارس محمود شاكر ، عليه ، ص: ٤٧٤]

الثالث: من المسارات المهملة: المقابلة بين بلاغيات المنثور، وبلاغيات المنظوم

قد تنبه بعض المتقدمين كالجاحظ وعبد القاهر الجرجاني وأبي هلال العسكري إلى شيء من خصائص فنون النثر، لاسيما الخطابة والكتابة، وشيء من خصائص الشعر..

مثال ذلك إشارة الجاحظ إلى تداخل الشعر والنثر في كلام الخطباء[ينظر ٦ ، ج: ١/ص:١١٨] ، وكأنه أراد التنبيه على محاسن هذا الالتقاء، وهيأ لبحث شروطه، وموانعه، وفروقه.

ولأبي هلال العسكري نصيب وافر من هذه العناية الرائدة، ففي الصناعتين نص طويل استغرق أكثر من صفحتين منه، فيه تحرير لبعض مزايا فَنَّي النثر الأكثر شهرة في عصرهم، وهما فنَّا الخطابة والترسُّل، ومقابَلة لمزايا هذين الفنين بمزايا الشعر، وخصائصه، قال: (واعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكُتَّاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما، إلا أنَّ الخطبة يشافَهُ بها، والرسالة يُكتب بها، والرسالة تُجعل خطبة، والخطبة تُجعل رسالة، في أيسر كلفة، ولا يتهيأ مثل ذلك في الشعر، من سرعة قلبِهِ، وإحالته إلى الرسالة إلا بكُلفة، وكذلك الرسالة والخطبة لا يُجعلان شعرا إلا بمشقة)..[٨، ص: ١٣٦].

وأما عبد القاهر فكان أكثر تفصيلا في بعض إسهامه في هذا المسار، كقوله: إن من شأن خطب الكُتب ومقدماتها النثرية (أنْ يُعتمد فيها على الأوزان والأسجاع، فإنها تُروى وتُتناقل تناقلَ الأشعار. ومَحلُّها محل النسيب والتشبيب من الشعر، الذي هو كأنه لا يراد منه إلا الاحتفال في الصنعة، والدلالة على مقدار شوط القريحة، والإخبار عن فضل القوة والاقتدار على التفنن في الصنعة. قال [الجاحظ] في أول كتاب الحيوان: [...] فقد تَرك أوَّلاً أن يُوفِّق بين "الشبهة" و"الحيرة في الإعراب، ولم يَرَ أن يَقرِن "الخلاف" إلى "الإنصاف")...[٤، ص: ٩].

لكن حياة هذه المقابلات لم تعمر طويلا ، ولم يكتب لها التطوير الذي تستحقه، بل رأينا كتب البلاغة تضع المثال من النثر بإزاء المثال من الشعر، في بيان غرض واحد، دون أن تَشعر أو تتساءل أنه هل ثمة فرق يمكن أن يكون ،أو يجب أن يكون بين النظيرين الإبداعيين.

ومرة أخرى يتكفل (علم اللغة الحديث) ودراساته الأسلوبية البلاغية بإنارة هذا المسار وتمهيد القول فيه ببحوث متعمقة لم تحفل بها البلاغة المأثورة (فالبلاغة العربية في جملتها معيارية لا وصفية، ومنطقية لا لغوية وعشوائية في اختيارها للعناصر التي تعتد بها وتقف عندها من حصيلة اللغة وأشتات الأدب دون تحديد للمستويات، ولا تمييز بين الشعر والنثر وكلام العرب الجاري على ألسنتهم)[٢٩، ص: ١٥٩].

والله أعلم.

نتائج البحث وتوصياته

يؤكد البحث على عديد من القيم، وينبه إلى تطبيقات منهجية لابد للبلاغي من الوعي بها عند دراسته للنص واستنباط القواعد منه أو تطبيقها عليه، على النحو التالي:

أولا: أن فهم منهج العمل وآلية التنفيذ ركيزتان أساسيتان في فهم العمل ذاته، ومِن ثَمَّ القدرة على الإسهام في تطويره، وسد ثغراته.

ثانيا: أن المقابلات تمثل جانبا أساسيا من جوانب التفكير البلاغي، من خلال مقابلة الأساليب ببدائلها، ومِن ثَمَّ اكتشاف الفروق وتصنيفِها بحسب المقامات الملائمة لكل أسلوب وصيغة.. وهكذا يتأسس كثير من القواعد، وما يتفرع عنها من التقسيمات المختلفة.

ثالثا: أن مفهوم المقابلة أوسع من مفهوم (المقارنة) و(الموازنة)، فالمقابلات لا تُلزم بالترجيح، بل تتعارض معه في الأصل، إذ البلاغة في جوهرها تَربط الجمالَ بالمقام، فالحُكم فيها نِسبي..

رابعا: كان للمقابلات أثر جوهري في نشأة علم البلاغة وتطويره، كما دلت أقوال العلماء المتقدمين وممارساتهم في التأليف والتوصيف.

خامسا: انطلاقا من التسليم بأن المقابلة تمثل منهجا علميا فقد التمس البحثُ شروطها ومبادئها في نظر البلاغيين، فاتضح أن من أهم تلك الشروط: التسليمُ بفكرة (النظم)كما قررها عبد القاهر الجرجاني، وما تَقتضيه من احترام الفروق بين الأساليب، ولو كان دقيقة.. وتقديرِ الفروقِ بين الألفاظ ولو قيل إنها مترادفة.

سادسا: اهتم البحث بتجلية صفات البلاغي الجدير بالنجاح في إتقان المقابلات فَبَيَّنَ أنَّ من أهمها: تَمتُّعه بالذوق الفني الراقي، وقدرتُه على تعليله بامتلاك أدوات التعليل والتفسير للذوق الأدبي، ومن أهم تلك الأدوات: سعةُ الاطلاع اللغوي، والثقافي، إلى جانب الاتسام بروح الصبر والمثابرة في التدقيق والتأمل عند الفروق بين المتقابلات.

سابعا: اعتنى البحث بالكشف عن مسارات المقابلات البلاغية الفاعلة، فاهتدى إلى حقيقة تَعدُّدها وتنوُّعِها، وأن من أهمها: مسار المقابلة داخل الصِّيَغ والتراكيبِ والصورِ. والمقابلة بين الألفاظ المقاربةِ الدلالةِ أو ما قيل عنه إنه مترادف الدلالة، في التعبير عن ذات المعنى.. وكانَ البحث قد عُنِيَ بنفي الترادف، وبَيَّن أنه يتعارض بوضوح مع الحس البلاغي وروحه..

ثامنا: بعد البحث في مسارات المقابلات الفاعلة في تراثنا البلاغي انتقل البحث للكلام عما يمكن القول بأنها مسارات مُهملة عند البلاغيين المتقدمين، ومنها مسار المقابلة بين بلاغات الألفاظ، ودرس البحث جوانب مفصلة من هذا المسار.. ومنها مسار المقابلة بين اللغات،

تاسعا: بَيَّنَ البحث بأنَّ أول هذين المسارين من مساري المقابلات البلاغية قد أخذ نصيبا حسنا من العناية به على أيدي المفسرين، وعامةِ المؤلفين في الدراسات القرآنية، خاصة، والبلاغيين عامة.. إلا أنَّ ثاني المسارين لم يحض بما يستحقه من العناية والدرس، مع أنه قد بدأ يأخذ نصيبا من العناية به على يد الدراسات اللغوية الحديثة، وأنه لذلك جدير بالتعمق فيه وإحيائه.. وهذا ما يوصي البحث بالامتداد فيه والتوسع في دراسته والله الموفق.

المراجع

[١] القرطاجني، حازم. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخواجة. دار الكتب الشرقية. ب/ت

[٢] الزمخشري. أساس البلاغة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ب/ت

[٣] غنيمي ، د-محمد. الأدب المقارن ، دار النهضة، بمصر . ب/ت.

[٤] الجرجاني، عبد القاهر. أسرار البلاغة. قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر. نشر: دار المدني بجدة. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

[٥] الشايب، أحمد. أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثامنة، ١٩٧٣م

[٦] الجاحظ. البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون. نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الرابعة، ب/ت

[٧] ابن المعتز، عبد الله. البديع ، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

[٨] العسكري، أبو هلال. الصناعتين، الكتابة والشعر. تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، نشر المكتبة العصرية، بيروت. في١٤٠٦هـ.

[٩] البابرتي، أكمل الدين. شرح التلخيص. دراسة وتحقيق: الدكتور محمد مصطفى رمضان صوفية. نشر المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا.الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ.

[١٠] القزويني، الخطيب، الإيضاح ، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى.

[١١] الرماني، علي بن عيسى. النكت في إعجاز القرآن، ضمن كتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، حققها: محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول سلام، نشر دار المعارف بمصر.الطبعة ٤.

[١٢] نايل، د-محمد. البلاغة بين عهدين، في ظلال الذوق الأزلي، وتحت سلطان العلم النظري. نشر دار الفكر العربي. ب/ت

[١٣] الخطابي. بيان إعجاز القرآن، ضمن كتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) حققها: محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول سلام، نشر دار المعارف بمصر. الطبعة ٤

[١٤] القيرواني، ابن رشيق. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ، تحقيق الدكتور محمد قرقزان، نشر دار المعرفة، بيروت، ب/ت

[١٥] الجرجاني، عبد القاهر. الرسالة الشافية. ضمن كتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، حققها: محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول سلام، نشر دار المعارف بمصر. الطبعة ٤

[١٦] الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، نشر مكتبة الخانجي، بالقاهرة.

[١٧] عبد المطلب، د-محمد. البلاغة العربية قراءة أخرى. نشر مكتبة لبنان، والشركة المصرية العالمية، لونجان-١٩٩٧ م.

[١٨] الإسفراييني، عصام الدين. الأطول شرح تلخيص المفتاح، بتحقيق الكاتب، مخطوط. رسالة دكتوراه، مقدمة لقسم البلاغة والنقد الأدبي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،

[١٩] السجلماسي، أبو محمد القاسم. المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع. تحقيق علال الغازي، نشر مكتبة المعارف، الرباط. الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ.

[٢٠] ياسوف، د-أحمد. جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، سوريا، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ.

[٢١] هدارة، د-محمد مصطفى. مشكلة السرقات في النقد العربي. نشر المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ.

[٢٢] أبو حيان. البحر المحيط، مطبعة السعادة.

[٢٣] الزركشي، بدر الدين. البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعرفة، بيروت . ب/ت

[٢٤] ابن جماعة، محمد. كشف المعاني في المتشابه المثاني، بتحقيق مرزوق على إبراهيم. دار الشريف، الطبعة الأولى ١٤٢٠

[٢٥] عبد الرحمن، د- عائشة. الإعجاز البياني للقرآن، ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانية،. الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر.

[٢٦] الخولي، أمين. مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب. ب/ت

[٢٧] المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق على محمد البجاوي. دار الفكر العربي. ب/ت

[٢٨] الخفاجي، ابن سنان. سر الفصاحة ، تعليق: عبد المتعال الصعيدي. مطبعة محمد على صبيح، بالقاهرة، الطبعة الأولى.

[٢٩] فضل، د-صلاح. علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته. نشر مؤسسة مختار بالقاهرة. ١٩٩٢م.

Method of Comparison in Rhetorical Thought

Mohammad Abdul Rahman Al-Kharraz
Assistant Professor in Rhetoric and Literary Criticism
The Department of Arabic Language and its Literatures
Arabic Language and Social Studies College
Al-Qassim University
mhmmd1@hotmail.com

(Received 15/9/1428H.; accepted for publication 17/11/1428H.)

Abstract. Obviously the understanding of acting method and automation of execution are basic pillars to understand the work itself. Hence, is ability to contribute in its development, filling the gaps & correcting the defaults. The research regards attentively some aspects of Rhetorical Thought and that is comparison. First of all it pays attention to explain its meaning by getting separated from near by terms and they are "Comparison & Collation". It reasons out that the comparison does not adhere to preferences rather it disagrees by source . Because the origin of rhetoric keeps the beauty in its place so the control in it applies relatively.

Then the research speaks about the importance of comparisons in the development of rhetoric and based on that and also following researches and contents of scholars of this science. Its importance for the establishment comes to lights for the rules creators and inventors during the methods of comparison with it alternatives. Hence discovering the differences and composing each method and form in their proper places thus the grammar and its different sections are established.

The research also deals with the history of comparison as it displays the ups and downs and development in the history of rhetorical observation and thought.

Considering the comparison a scientific method the research looks for its terms and conditions in view of the rhetoric scholars so it appears that among its importance is acknowledging its thought (Poetry) as its was stated by Abdul Qahir Al-Jarjani and what it requires of respect of the differences among the methods though delicate and estimating the difference between the words though they are synonym.

The research also speaks about rhetorical qualities successful in mastery of comparisons so it appears that one of its importance is its enjoyment with the top artistic propriety and its ability to justify by controlling the justification tools and explanation for the literary propriety. Most importantly the capacity of lingual & cultural information along with exalting to patience and diligence in accuracy and thinking at comparing between differences.

At end, the research concerns about tracks of rhetorical comparisons by exploring its varieties. Most importantly comparison track inside the forms and structures and pictures and comparison among the near by words in regard to meaning or what is said synonym in exploring the meaning. The research sees to deny the synonym and explains that it obviously vary from rhetoric sense & it soul.

After research in active comparisons tracks in our rhetorical heritages this research moves to speaking about what we may say as neglected tracks by the antique rhetoric scholars among which is comparison track among words eloquences on the same pattern the research has divided, also on of them is comparison track between the languages and the research explained that the first track has been taken into care by the interpreters and other general authors of Quran studies and the second track was taken into care by modern language studies. Therefore they worth to have a thorough study about them as bringing them to the existence